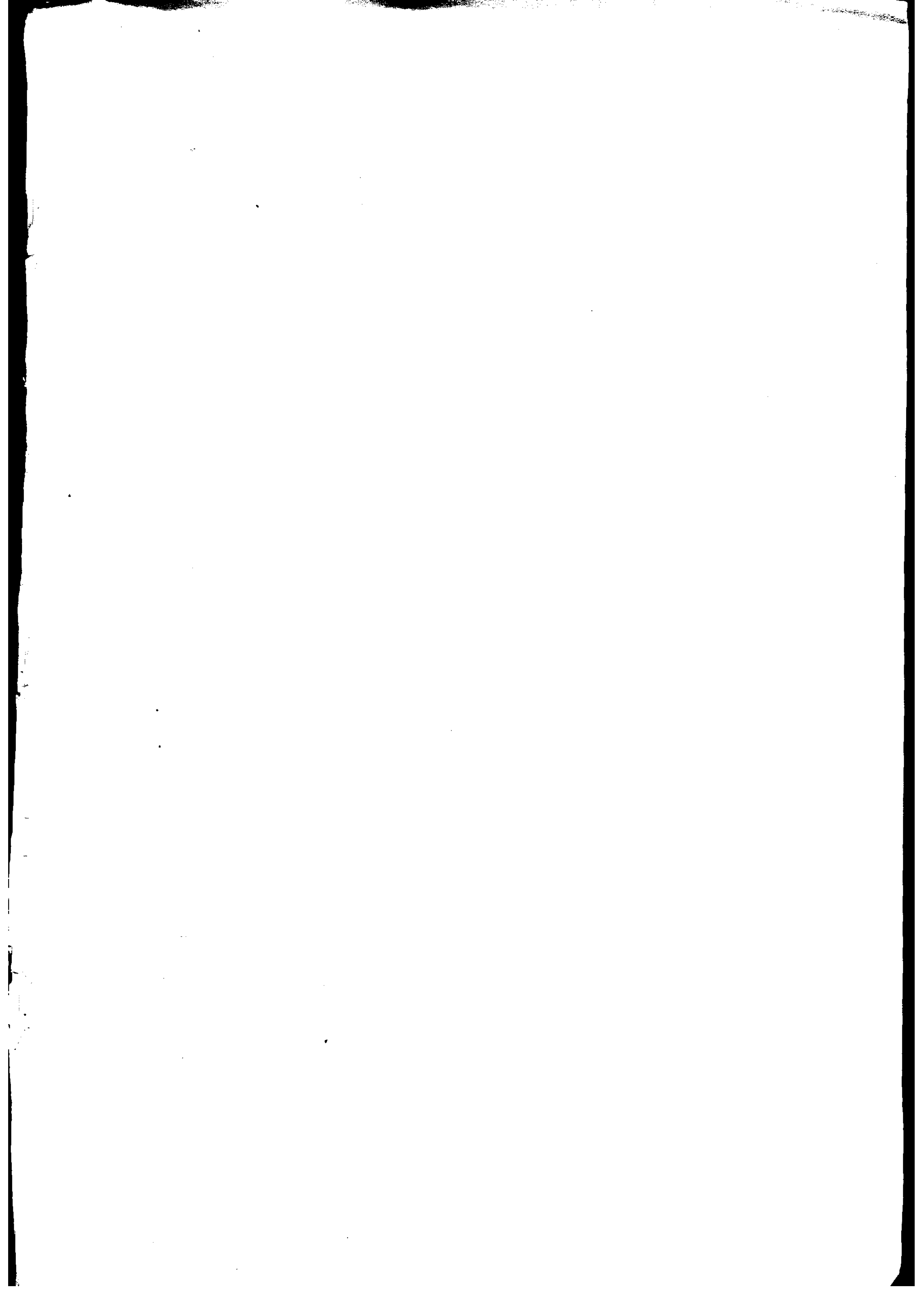
فصل الخطاب فى تفسير
سورة الأحزاب

الدكتورة
عفاف على النجار
الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
جامعة الأزهر - القاهرة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م

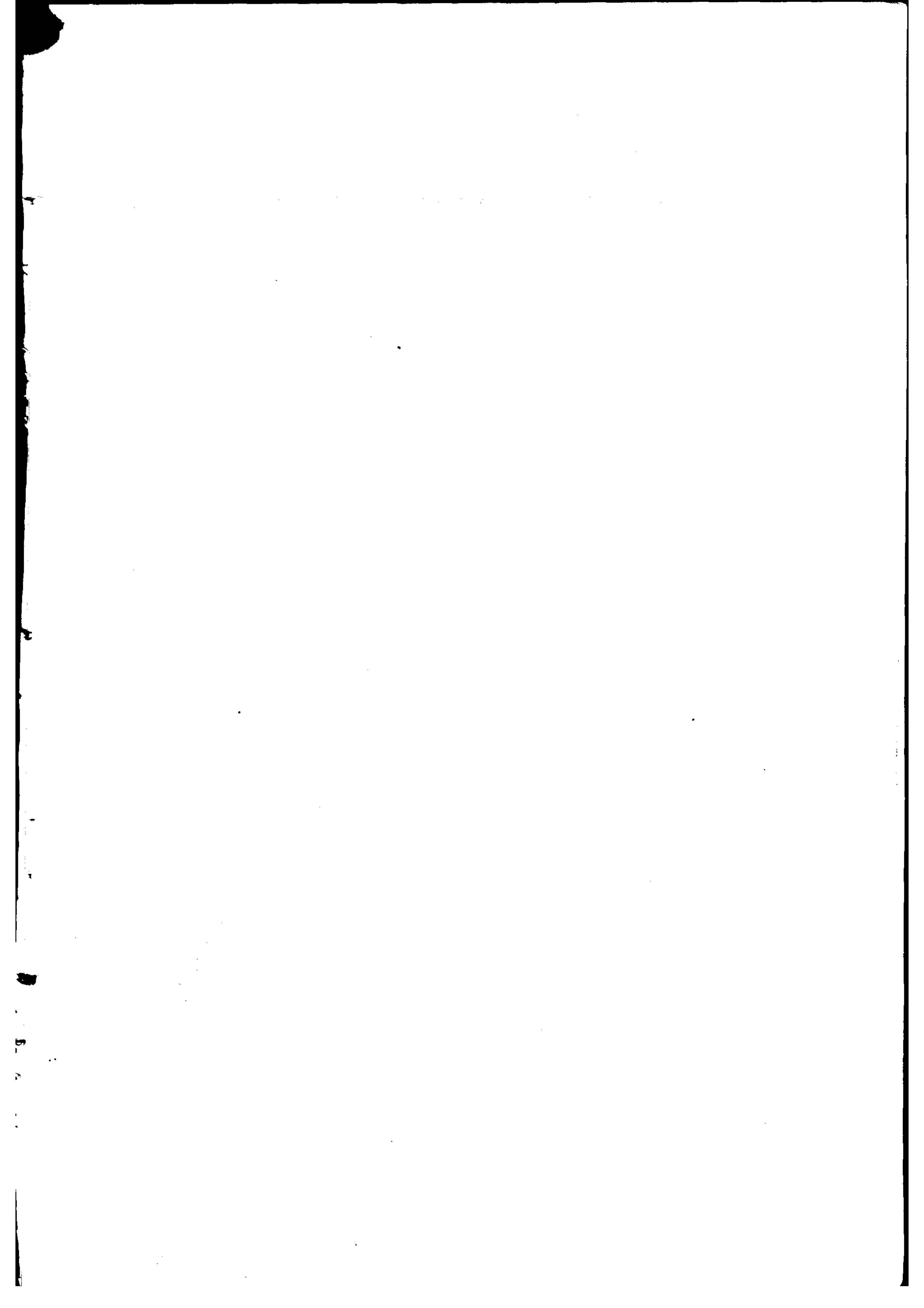
الناشر
مكتبة ومطبعة الغد
للطبع والنشر والتوزيع



إهداء

إلى روح من كانت ملاذى وأنسى وأصبحت اليوم ذكـــرى .
إلى تلك الروح الطاهرة ، إلى روح والدتى الكريمة طيـــب الله ثراها ، وجعل من المقربين مقيلها وسكناها ، وجزاها عنـــى أحسن جزاء .

إبنتك البارة
عفاف النجار



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى أله وأصحابه أجمعين ومن اهتدى بهديه وعمل بشريعته إلى يوم الدين .

وبعد ،،،،

فإن الله تعالى قد أنزل القرآن العظيم على نبيه محمد ﷺ فكان المعجزة الكبرى الدالة على صدق نبوته ، والهداية الوحيدة إلى سبيل الرشاد ، فقد جمع بين التعليم والتأديب والرحمة والإطلاع والحكمة . فكانت أدابه جليلة ، وتوجيهاته حكيمة ، ووصايه نافعة . وذلك من أجل تنشئة الفرد الصالح ، والجماعة المتعاونة والمجتمع الفاضل والأمة الخيرة ..

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ (١)

"صدق الله العظيم "

---

(١) سورة آل عمران الأية ١١٠

تمهيد

بين يدى السورة :

نبين فيه ست نقاط :

الأولى : فى أن السورة مكية أم مدنية ؟ وفيها نقول :

سورة الأحزاب مدنية بإجماع العلماء وقد نزلت بعد سورة آل عمران .

الثانية : فى عدد أيات السورة : وفى عدد آيات السورة قولان :

أحدهما : ينسب إلى أبى بن كعب – رضى الله عنه – قال : عدد آيات السورة ثلاثا وسبعين أية ، وإن كانت لتعدل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم " فرفع فيما رفع – أى نسخ – من التلاوة وإن بقى الحكم رجماً للمحصن والمحصنة إذا زنيا [1] . وهذا الخبر لابد أن يكون موضع شك وريبة وغير مقبول .

والسر فى رفض هذا القول : أن حفاظ القرآن الكريم ، والخلفاء الأربعة وكافة الصحابة – رضى الله عنهم – أجمعوا على أن القرآن هو الذى فى المصحف دون خلاف يذكر . والذين إختلفوا فى ذلك قلة قليلة لا يؤبه لهم .

---

(١) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٥٥٨/٦ ط ٠ دار الفكر ٠

والقول الآخر : ينسب إلى عائشة ــ رضى الله عنها ــ فقد قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبى ﷺ مائتى آية ، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدرمنها إلا على ما هو عليه الآن [1] . وهذا القول ضعيف بل واه متهالك ، مثله فى الضعف ما روى من أن تلك الزيادة كانت مكتوبة فى صحيفة فى بيت عائشة ــ رضى الله عنها ــ فأكلتها الداجن ــ أى الشاة ــ فذلك من أضاليل الروافض والملاحدة ، وهؤلاء يزعمون أن القرآن مستودع عند الإمام المنتظر ، ويقولون إن هذا الإمام سوف يأتى بالقرآن . وقر بعير ــ أى حمل بعير [2] .

وبعد : فإن هذين القولين المنسوبين إلى أبى بن كعب وعائشة ــ رضى الله عنهما ــ لا وزن لهما ، ولا يمكن تصديقهما لمخالفتهما لما أجمع عليه الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ وتضمنهما أن القرآن قد ضاع بعضه ، وهذا مناقض لقول الله - تبارك وتعالى- ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [3] وكل قول يخالف قول الله تعالى أو يناقضه مرفوض .

والخلاصة : أن عدد آيات السورة ثلاث وسبعون آية وما عدا هذا فهو غير صحيح .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر تفسير الكشاف ٣ / ٢٢٥ .

(٣) سورة الحجر الآية ٩ .

الثالثة : فى الحكمة من تسمية السورة بإسمها

سميت السورة الكريمة " سورة الأحـــزاب " لأن المشـــركين وهـــم كفار مكة وغطفان ، وبنو قريظة تحزبوا جميعاً على حرب المســـلمين وضربوا حصاراًعلى المدينة المنورة ، واجتمعـــوا مـــن كـــل ناحيـــة ليستأصلوا النبى ﷺ وأصحابه ،ولكن الله تعالى رد كيدهم فىنحورهـــم وهزم جموعهم بالريح فكانت آيةً باهرة ، ومعجزة ظاهرة علـــــى تـــأييد الله لرسوله ولعباده المؤمنين بالنصرة عليهم بدون قتال ومن أجل ذلك ســـــميت سورة الأحزاب إشارة لقوله تعالى: ﴿ **ولما رأى المؤمنـــون الأحـــزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومـــا زادهـــم إلا إيمانا وتسليم** ﴾ .

وقد إشتهرت هذه الغزوة بـــ (غزوة الخندق) لأن المسلمين حفـــروا خندقاً حول المدينة المنورة تحصيناً لهم من تلك الجموع الكثيرة وكـــان ذلك بإشارة سلمان الفارسى على النبى ﷺ .

الرابعة : مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها .

أولا: مناسبتها لما قبلها :

إذا تأملنا فاتحة سورة " الأحزاب " وخاتمة سورة : "الســـجدة " وجدنا تشابهاً بين فاتحة هذه وخاتمة تلك ، فإن تلك ختمـــت بـــأمر النبى ﷺ بالاعراض عن الكافرين وانتظار عذابهم وذلك فى قولـــه تعالى : ﴿ **فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون** ﴾ [(١)] .

---

(١) سورة السجدة الآية ٣٠ .

وهذه بُدئت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين واتباع ما أوحى إليه والتوكل عليه عز وجل حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ **يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً * واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً * وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾ (١)، (٢).

وقال أبو حيان (٣) : " ومناسبة أول هذه السورة لآخر ماقبلها واضحة ، وهو أنه تعالى حكى أنهم يستعجلون الفتح وهو الفصل بينهم . وأخبر تعالى أنه يوم الفتح لا ينفعهم إيمانهم وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **ويقولون متى هذا الفتح أن كنتم صادقين * قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون** ﴾ (٤) فأمره فى أول هذه السورة بتقوى الله ونهاه عن طاعة الكفار والمنافقين فيما أرادوا به " .

ثانياً : مناسبة السورة لما بعدها

ترتبط سورة الأحزاب بالسورة التى بعدها " سبأ " بروابط منها :

لما ختم سبحانه سورة الأحزاب بقوله : ﴿ **ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ (٥).

---

(٢) سورة الأحزاب الأيات ١ـ٣ .

(٣) راجع نظم الدررللبقاعى ١٥ / ٢٧٣ ، وأسرار ترتيب القرآن للسيوطى ص١٢٦ .

(٣) فى البحر المحيط ٩/٤٥١ .

(٤) سورة السجدة الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

(٥) الآية ٧٣ .

افتتح سبحانه سورة سبأ بقوله : ﴿ **الحمد لله الذى لـــه مـــا فـــى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الأخرة وهو الحكيم الخبير** ﴾ .

فهذه الصفات التى أجريت على الله ــ تعالى ــ فى مفتتح سورة سبأ لائقة بالحكم الذى فى مختتم سورة الأحزاب .

وقال أبو حيان [(١)] : " أن أبا سفيان قال لكفار مكة لما سمعوا ﴿ **ليعـذب الله المنافقين والمنافقات ٠٠٠** ﴾ الآية . كأن محمداً يتوعدنا بـــالعذاب بعد أن نموت ويخوفنا بالبعث ، واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نبعث . فقال الله ــ تعالىــ قل يا محمد﴿ **بلى وربـــى لتـــأتينكم** ﴾ [(٢)] وباقى السورة تهديد لهم وتخويف ومن هذا ظهرت المناسبة بيـــن هـــذه السورة والتى قبلها " أ . هــ .

وبهذا يتضح لنا سر وضع سورة سبأ بعد سورة الأحزاب .

الخامســـة : عــرض عــام لمضمــون الســـورة يـــبرز أهدافـــها ومقاصدها

هذه السورة تتناول قطاعاً حقيقياً من حياة الجماعة المسلمة ، فـــى فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى ، إلى ما قبل صلـــــح الحديبيـــة ، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين فى المدينة تصويراً واقعيـــــاً مباشراً ، وهى مزدحمة بالأحداث التى تشير إليها خلال هذه الفـــترة ، والتنظيمات التى أنشأتها أو أقرتها فى المجتمع الإسلامى الناشىء .

---

(١) فى البحر المحيط ٧ / ٢٥٧ .

(٢) سورة سبأ من الآية ٣ .

والتوجيهات والتعقيبات على هذه الأحداث والتنظيمات قليلة نسبياً ؛ ولا تشغل من جسم السورة إلا حيزاً محدوداً ، يربط الأحداث والتنظيمات بالأصل الكبير ، أصل العقيدة فى الله والاستسلام لقدره ، ذلك كافتتاح السورة : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيماً * واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً * وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ، ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . . . ﴾

وكالتعقيب على بعض التنظيمات الاجتاعية فى أول السورة : ﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطوراً وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴾.

والتعقيب على موقف المرجفين " يوم الأحزاب " التى سميت السورة باسمها . ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً * قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوأً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ ومثل قوله فى صدد أحد التنظيمات الإجتماعية الجديدة ، المخالفة لمألوف النفوس فى الجاهلية : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . . . ﴾ .

وأخيراً ذلك الإيقاع الهائل العميق : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ﴾

ولهذه الفترة التى تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة ، فهى الفترة التى بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة فى حياة الجماعة وفى حياة الدولة ؛ ولم يتم إستقرارها بعد ولا سيطرتها الكاملة . كالذى تم بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجاً ، واستتباب الأمر للدولة الإسلامية ، وللنظام الإسلامى .

والسورة تتولى جانباً من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة ، وإبراز تلك الملامح وتثبيتها فى حياة الأسرة والجماعة ؛ وبيان أصولها من العقيدة والتشريع ؛ كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها ؛ وإخضاعها فى هذا كله للتصور الإسلامى الجديد .

وفى ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم يرد الحديث عن غزوة الأحزاب ، وغزوة بنى قريظة ، ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما ، ودسائسهم فى وسط الجماعة المسلمة ، وما وقع من خلخلة وأذى بسبب هذه الدسائس وتلك المواقف . كما تعرض بعدها دسائسهم وكيدهم للمسلمين فى أخلاقهم وآدابهم وبيوتهم ونسائهم .

ونقطة الإتصال فى سياق السورة بين تلك الأوضاع والنظم وهاتين الغزوتين ، وما وقع فيهما من أحداث ، هى علاقة هذه وتلك بمواقف الكافرين والمنافقين واليهود ؛ وسعى هذه الفئات لإيقاع الاضطراب فى صفوف الجماعة المسلمة ، سواء عن طريق الهجوم الحربى والإرجاف فى الصفوف والدعوة إلى الهزيمة ؛ أو عن طريق خلخلة الأوضاع الإجتماعية والآداب الخلقية . . ثم ما نشأ عن الغزوات والغنائم من آثار فى حياة الجماعة المسلمة تقتضى تعديل بعض الأوضاع الإجتماعية والتصورات الشعورية ؛ وإقامتها على أساس ثابت

يناسب تلك الآثار التى خلفتها الغزوات والغنائم فـــى واقـــع الجماعـــة المسلمة .

ومن هذا الجانب وذلك تبدو وحدة السورة ، وتماســـك سـياقها ، وتناسق موضوعاتها المنوعة . وهذا وذلك إلى جانب وحدة الزمن التـى تربط بين الأحداث والتنظيمات التى تتناولها السورة [١].

تمر أحداث السورة الكريمة بمراحل ست :

المرحلة الأولى :

بدأت السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى تقوى الله وعـــدم الطاعـــة للكافرين والمنافقين ، واتباع ما يوحى إليه ربه والتوكل عليه وحـــده . وهو البدء الذى يربط سائر ما ورد فى السورة من أحـــداث بـــالأصل الكبير الذى تقدم عليه شرائع هذا الدين وتوجيهاته ، ونظمه وأوضاعه ، وآدابه وأخلاقه . . . . . أصل إستشعار القلب لجلال الله ، والإستســـلام المطلق لإرادته ، واتباع المنهج الذى اختاره ، والتوكل عليه وحـــده ، والاطمئنان إلى حمايته ونصرته .

وبعد ذلك يلقى بكلمة الحق والفصل فى بعض التقاليد والأوضـــاع الإجتماعية ، مبتدئاً بإيقاع حاسم يقرر حقيقة واقعة : ﴿ **مـــا جعـــل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾ .. يرمز بها إلى أن الأنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر من أفق واحد ، ولا أن يتبع أكثر من منهج واحـــد ، وإلا نافق ، واضطربت خطاه . وما دام لا يملك إلا قلباً واحداً ، فلا بـــد أن

---

(١) راجع فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٢٨١٨/٥ .

يتجه إلى إله واحد وأن يتبع نهجاً واحداً ؛ وأن يدع ما عداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات .

ومن ثم يأخذ فى إبطال عادة الظهار وهو أن يحلف الرجل على إمرأته أنها عليه كظهر أمه فتحرم عليه حرمة أمه : ﴿ **وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهم أمهاتكم** ﴾ ويقرر أن هذا الكلام يقال بالأفواه ولا ينشىء حقيقة وراءه ، بل تظل الزوجة زوجة ولا تصير أماً بهذ الكلام ويثنى بإبطال عادة التبنى وآثاره : ﴿ **وما جعل أدعياءكم أبناءكم** ﴾ فلا يعودون بعد اليوم يتوارثون ، ولا تترتب على هذا التبنى أثاره الأخرى (التى سنفصل الحديث عنها فيما بعد) .

ويستبقى بعد ذلك أو ينشىء الولاية العامة لرسول الله ﷺ على المؤمنين جميعاً ؛ ويقدم هذه الولاية على ولايتهم لأنفسهم ؛ كما ينشىء صلة الأمومة الشعورية بين أزواج النبى ﷺ وجميع المؤمنين : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم** ﴾ . ثم يبطل آثار المؤخاة التى تمت فى أول الهجرة ، ويرد الأمر إلى القرابة الطبيعية فى الإرث والدية وما إليها : ﴿ **واولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين** ﴾ .

وبذلك يعيد تنظيم الجماعة الإسلامية على الأسس الطبيعية ويبطل ما عداها من التنظيمات الوقتية .

ويعقب على هذا التنظيم الجديد ، الذى يستمد من منهج الإسلام وحكم الله ؛ بالإشارة إلى أن ذلك مسطور فى كتاب الله القديم ، وإلى الميثاق المأخوذ على النبيين ، وعلى أولى العزم منهم بصفة خاصة .

على طريقة القرآن فى التعقيب على النظم والتشـــريعات ، والمبـــادىء والتوجيهات ، لتقر فى الضمائر والأخلاد .

وهذا هو إجمال المرحلة الأولى من السورة .

المرحلة الثانية :

بيان نعمة الله علـــى المؤمنيـــن ، إذ رد عنـــهم كيـــد الأحـــزاب والمهاجمين ، ثم يأخذ فى تصوير وقعتى الأحزاب وبنى قريظة تصويراً حياً ، فى مشاهد متعاقبة ، ترسم المشاعر الباطنـــــة ، والحركـــات الظاهرة ، والحوار بين الجماعات والأفراد . وفى خلال رسم المعركــة وتطوراتها تجىء التوجيهات فى موضعها المناسب :

وهكذا نجد وصف المعركة يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جائتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لـم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ . . . ويتوسطها قوله ﴿ **قل لـــن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليـــلاً * قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمـــة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا** ﴾ . . وبقوله ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الأخر وذكـــر الله كثيراً** ﴾ . . . ويختمها بقوله : ﴿ **ليجزى الله الصادقين بصدقـــــهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيمـــا** ﴾ .. وهذا إلى جانب عرض تصورات المؤمنين الصـــــادقين للموقـــف ، وتصورات المنافقين والذين فى قلوبهم مرض عرضاً يكشف عن القيـــم الصحيحة والزائفة من خلال تلك التصورات : ﴿ **وإذ يقول المنـــافقون**

والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ .﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما ﴾ .. ثم تجىء العاقبة بالقول الفصل والخبر اليقين ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراًوكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾ .

بعد ذلك يجىء قرار تخيير أزواج النبى ﷺ اللائى طالبنه بالتوسعة فى النفقة عليهن بعد ما وسع الله عليه وعلى المسلمين من فىء بنى قريظة العظيم وما قبله من الغنائم ، تخييرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة .

وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ورضين هذا المقام الكريم عند الله ورسوله ﷺ وآثرنه على متاع الحياة الدنيا .

وفى العذاب إن ارتكبن فاحشة مبينة . وعلل هذه المضاعفة بمقامهن الكريم وصلتهن برسول الله ﷺ ونزول القرآن فى بيوتهن وتلاوته والحكمة التى يسمعنها من النبى ﷺ و استطرد فى بيان جزاء المؤمنين كافة والمؤمنات .

المرحلة الثالثة :

وهى تتناول موضوع تزويج زينب بنت جحش القرشية الهاشمية بنت عمة رسول الله ﷺ من زيد بن حارثة مولاه . وما نزل فى شأنه أولا من رد أمر المؤمنين والمؤمنات كافة إلى الله ، ليس لهم منه شىء ، وليس لهم فى أنفسهم خيرة . إنما هى إرادة الله وقدره الذى يسير كل شىء ، ويستسلم له المؤمن الإستسلام الكامل الصريح :

﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾ .

ثم يعقب **حادث الزواج حادث الطلاق** ؛ وما وراؤه من إبطال أثار التبنى .. الذى سبق الكلام عليه فى أول السورة . ابطاله بسابقة عملية يختار لها رسول الله ﷺ بشخصه ، لشدة عمق هذه العادة فى البيئة العربية وصعوبة الخروج عليها . فيقع الإبتلاء على رسول الله ﷺ ليحملها فيما يحمل من أعباء الدعوة وتقرير أصولها فى واقع المجتمع ، بعد تقريرها فى أعماق الضمير : ﴿ **فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا** ﴾ . . .

وبهذه المناسبة يوضح حقيقة العلاقة بين رسول الله ﷺ والمؤمنين كافة :﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ .

ويختم هذه المرحلة بتوجيهات للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾

المرحلة الرابعة :

تبدأ ببيان حكم المطلقات قبل الدخول . ثم تتناول تنظيم الحياة الزوجية للرسول ﷺ فتبين من تحل له من النساء المؤمنات ومن يحرمن عليه. وتستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبى ﷺ وزوجاته . فى حياته وبعد وفاته . وتقرير إحتجابهن إلا على أبائهن أو

إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو أبناء اخواتهن أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن .

وإلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله ﷺ فى أزواجه وبيوته وشعوره ؛ ويلعنهم فى الدنيا والآخرة مما يشير بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئاً كثيراً .

ويعقب على هذا بأمر أزواج النبى ﷺ وبناته ونساء المؤمنين كافة أن يدنين عليهن من جلابيبهن ﴿ **ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين** ﴾ .

وبتهديد المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى المدينة بإغراء النبى ﷺ بهم وإخراجهم من المدينة كما خرج من قبل بنو قينقاع وبنى النضير ، أو القضاء عليهم كما وقع لبنى قريظة أخيراً .

وكل هذا يشير إلى شدة إيذاء هذه المجموعة للمجتمع الإسلامى فى المدينة بوسائل شريرة خبيثة .

المرحلة الخامسة:

وهى المرحلة الأخيرة فى السورة وتتضمن سؤال الناس عن الساعةوالإجابة على هذا التسائلبأن علم الساعة عند الله ، والتلويح بأنها قد تكون قريباً . ويتبع هذا مشهد من مشاهد القيامة : ﴿ **يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول** ﴾ .. ونقمتهم على سادتهم وكبرائهم الذين أطاعوهم فأضلوهم : ﴿ **ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً** ﴾

ثم تختم السورة بإيقاع هائل عميق الدلالة والتأثير : **﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾** .

وهو إيقاع يكشف عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشرية ، وعلى عاتق الجماعة المسلمة بصفة خاصة ؛ وهي التي تنهض وحدها بعبء هذه الأمانة الكبرى " أمانة العقيدة والإستقامة عليها . والدعوة والصبر على تكاليفها " ، والشريعة والقيام على تنفيذها في أنفسهم وفي الأرض من حولهم . مما يتمشى مع موضوع السورة ، وجوهاً ؛ وطبيعة المنهج الإلهي الذي تتولى السورة تنظيم المجتمع الإسلامي على أساسه .

الساسة : منهج البحث في تفسير السورة :

تيسيراً على القارئ وعونا له في فهم سورة الأحزاب والوقوف على معانيها والأهداف التي ترمي إليها والأداب التي ترشد إليها يجدر بي أن أبين المنهج الذي سأسير عليه في تفسيرها حتى يكون في تناوله لها على هدى وبصيرة من أمره **ويرتكز هذا المنهج على المبادىء التالية :**

١ـ **قسمت السورة إلى جمل تامة في وحدة مترابطة** يصح الوقوف عندها من حيث المعنى والسياق ، وقد تكون الجملة آية واحدة أو آيتين أوعدد من الآيات .

٢ــ **شرح مدلول الجملة** شرحاً وسيطاً بأداء بيانى واضح يبرز الــهدف ويكشف عن المقصود .

٣ــ **تجلية ما تحتويه الجملة** من مبادىءوتوجيهات خلقية وإجتماعيـــة وروحية تستهدف صالح وخير الإنسان .

٤ــ **الإستعانة بآية أو آيات أخرى غير ما فى السورة** لإكمال وتدعيـم الموضوع محل الحديث .

٥ــ **تدعيم التفسير بالرأى** أحياناً بالتفسير المأثور متى كان صحيحاً .

على أننى سألتزم إن شاء الله فى تفسير كل جملة بالخطوات الآتية :

أولا : الربط والمعنى الإجمالى .

ثانياً : شرح الألفاظ .

ثالثا : سبب النزول إذا وجد .

رابعا : الإعراب والبلاغة والقراءات بالقدر الذى يحتاج إليه فى إيضاح المعنى .

خامساً : استنباط بعض الأحكام الفقهية إذا وجدت فى الآية أو الآيـــات محل الحديث .

سادساً : الشرح والبيان مع التركيز على النقاط الهامة وذكـــر أقــوال المفسرين إذا تعددت فى نقطة أو مسألة وترجيح مـــا يســتحق الترجيح منها بالدليل .

وبعد . . . . بنظرة واعية وشاملة فى أنحاء السورة وما تحتويه من معان وأحكام ومبادىء وآداب ، وجد أن السورة الكريمة تعنى بتــأصيل وتوضيح عدة موضوعات . وفيما يلى التفسير والتفصيل .

أمر للنبى ﷺ بأن يستمر على تقوى الله ونهى له وللمؤمنين عن طاعة الكفار والمنافقين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(١)وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(٢)وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً(٣) ﴾

سبب النزول :

روى عن ابن عباس [(١)] : قال : إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبى ﷺ أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوَّفه المنافقون و اليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فأنزل الله ﴿ **يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين** ﴾

تفسير المفردات :

﴿ **يا أيها النبى** ﴾ : جعل نداءه بالنبى والرسول فى قوله ﴿ **يأيها النبى اتق الله** ﴾ و ﴿ **يأيها النبى لمَ تحرم** ﴾ و ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل** ﴾ وترك نداءه باسمه كما قال يا آدم ـ يا موسى ـ يا عيسى ـ يا داود . كرامة له وتشريفاً لمكانته وتنويهاً بفضله .

---

(١) انظر لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١٧١ .

التقوى : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجوا ثوابه ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله .

﴿ وتوكل على الله ﴾ : أى فوض أمرك إليه .

﴿ وكيلا ﴾ : حفاظاً موكولاً إليه كل أمر .

المباحث :

﴿ يا أيها النبى اتق الله ﴾ أى يا أيها النبى خف الله بطاعته ، وأداء فرائضه وواجب حقوقه عليك ، وترك محارمه ، وانتهاك حدوده .

والخلاصة : يا أيها النبى اثبت على تقوى الله ودم عليها .

ولما وجه الله تعالى رسوله ﷺ بتقوى الله ، أتبعـــه بالنـــهى عـــن الإلتفات نحو العدو فقال : **﴿ ولا تطـــع الكـــافرين والمنـــافقين ﴾** أى لاتساعدهم على شيء ولا تقبل لهم رأياً ولا مشورة وجانبهم واحـــترس منهم ، فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنيـــن ، لا يريـــدون إلا المضـــرة والمضادة .

وقد افتتحت السورة بالأمر بتقوى الله والنهى عن طاعة الكـــافرين والمنافقين ، واتباع الوحى المنزل خاصة .

وجاء بعد ذلك قوله تعالى : **﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين ﴾** فكان المراد منه أن الإنسان لايمكن أن يكون له قلبان يجمع بهما بين الضديـــن ، وهما ابتغاء مرضاة الله ، وابتغاء مرضاة الكافرين والمنافقين ، بل لـــه قلب واحد إذا صدق فى التوجه إلى الشيء لا يمكنه أن يتوجه إلى ضده والإخلاص ، فيكون فىوقت واحد مخلصاً لله ومخلصاً لأعداء دينه .

ثم علل ما تقدم بقوله : **﴿ إن الله كان عليماً حكيمـــاً ﴾** أى أن الله عليم بما تضمره نفوسهم وما الذى يقصدونه من اظـــهار النصيحـــة ،

وبالذى تنطوى عليه هوائجهم ، حكيم فى تدبير أمرك ، وأمر أصحابك ، وسائر شئون خلقه ، فهو حق أن تتبع أوامره .

ثم أكد وجوب الامتثال بأن الآمر لك هو مربّيك فى نعمه ، الغـــامر لك بإحسانه ، فهو الجدير أن تتبع أمره ،وتجتنب نهيه ، فقال : ﴿ **واتبع ما يوحى إليك من ربك** ﴾ أى واعمل بما ينزله عليك ربك من وحيـــه ، وآى كتبه

ثم علل ذلك بما يرغبه فى اتباع الوحى ، وبما ينأى عـــن طاعـــة الكافربن والمنافقين ، فقال : ﴿ **إن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ أى إن الله خبير بما تعمل أنت وأصحابك لا يخفى عليه شىء منه ، ثم يجازيكم على ذلك بما وعدكم به من الجزاء .

ثم أمر رسوله ﷺ بتفويض أموره إليه وحده ،فقال : ﴿ **وتوكل على الله** ﴾ أى فوض أمورك إليه وحده ، واعتمد عليه فى شئونك .

﴿ **وكفى بالله وكيلا** ﴾ أى وكفى به حافظا ، يوكل إليه جميع الشئون فلا تلتفت فى شىء من أمرك إلى غيره تعالى .

والخلاصة : حسبك الله ، فإنه إن أراد لك نفعاً لم يدفعه عنك أحـد ، وإن أراد ضراً لم يمنعه منك أحد .

الإعراب :

يا : حرف نداء وأى منادى نكره مقصوده مبنى على الضـــم فـــى محل نصب يا ، والهاء للتنبيه ، و ﴿ **النبى** ﴾ : بدل ، و﴿ **اتق** ﴾ : فعل أمر مبنى على حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديـــره أنـــت ، ولفظ الجلالة مفعول به . ولا : الواو حرف عطف ، ولا ناهيـــة .

﴿ **تطع** ﴾ فعل مضارع مجزوم بلا . وفاعل تطع ضمير مستتر تقديره أنت .الكافرين مفعول به . ﴿ **والمنافقين** ﴾ عطف على الكـــافرين .إن الله : إن وإسمها . وجملة كان خبرها . وإسم كان مستتر تقديره هـــو . و﴿ **عليماً** ﴾ خبر كان الأول . و ﴿ **حكيماً** ﴾ خبرها الثانى .

ما يستفاد من الآيات :

أن من أهم العناصر التى يجب أن يتزود بها الداعية ، وتقوم الدعوة على منهجها هى : تقوى الله . واتباع وحيه . والتوكل عليه وعدم طاعة الكافرين والمنافقين .

إبطال عادات فى الجاهلية

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ(٤)ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(٥) ﴾

علاقة الآيات بما قبلها :

هذه الآيات الكريمة مرتبطة بما قبلها غاية الترابط ؛ وذلك أن الله تعالى أمر فى الآيات السابقة نبيه وسائر المؤمنين بتقواه والخوف منه ، وحذرهم من طاعة الكفار والمنافقين ، وفى هذه الآيات ضرب سبحانه لنا الأمثال ليبين أنه لا يجتمع خوف الله وخوف ممن سواه ، فذكر أنه ليس للإنسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصى بالآخر ، وإذا لم يكن للمرء إلا قلب واحد ، فمتى اتجه لأحد الشيئين صد عن الآخر ، فطاعة الله تصد عن طاعة من سواه ، وأنه لا تجتمع الزوجية والأمومة فى امرأة ، أيضا لا تجتمع النبوة الحقيقية والتبنى فى إنسان ٠

تفسير المفردات:

﴿ جعل ﴾ : أى خلق .

﴿تظاهرون ﴾ : " الظهار مشتق من الظهر . يقال : ظاهر الرجل من زوجته إذا قال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، يريدون أنت محرمة علىَّ كما تحرم الأم ، وكانوا فى الجاهلية يُجرون على المظاهر منها حكم الأم .

وأصله مأخوذ من الظهر ، وإنما خصوا الظهر دون البطن والفخذ والفرج ، وهذه أولى بالتحريم ، وهذا من لطيف الاستعارات للكناية " (١).

قال ابن الأثير : " قيل : إنهم أرادوا : أنت علىّ كبطن أمى أى كجماعها ، فكنوا بالظهر عن البطن للمجاورة " (٢) .

﴿ أدعياءكم ﴾ : الأدعياء جمع دعىّ ، وهو الذى يدعى ابناً لغير أبيه ، وقد كانت تجرى عليه أحكام الابن فى صدر الإسلام .

﴿ السبيل ﴾ أى الطريق الحق . ﴿أقسط﴾ : أى أعدل .

﴿ مواليكم ﴾ أى أولياءكم فيه .

سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ :

أخرج الترمزى (٣) **وابن جرير** (٤) عن قابوس بن أبى ظبيان أن أباه حدثه قال : قلنا لابن عباس أرأيت قول الله ــ عز وجل ــ ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾ ما عنى بذلك ؟ قال : قام نبى الله ﷺ

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٥٢٨/٤ .

(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر . لابن الأثير ١٦٤/٣ .

(٣) فى سننه كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الأحزاب ٥ / ٣٤٨ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٤) فى تفسيره : ٢١ / ٧٤ .

يوماً يصلى فخطر خطرةً فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترى أن له قلبين قلباً معكم وقلباً معهم فأنزل الله﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾ .

وعن قتادة قال : كان رجل على عهد رسول الله ﷺ يسمى ذا القلبين فنزلت الآية .

وقيل نزلت " فى أبى معمر الفهرى كان رجلاً لبيباً حافظاً لما يسمع فقالت قريش ماحفظ أبو معمر هذه الأشياء إلا من أجل أن له قلبين ، وكان هو يقول لى قلبان أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد .فلما هزم الله المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فلقيه أبو سفيان وإحدى نعليه بيده والأخرى برجله فقال : يا أبا معمر ما حال الناس . قال انهزموا . فقال : ما احدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك . فقال ابو معمر : ما شعرت إلا أنهما فى رجلى فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده " [1] .

أما سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانهم فى الدين ومواليكم** .. . ﴾ .

فقد أخرج مسلم [2] **والترمذى** [3] عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال ما كنا ندعوا زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزل فى القرآن ﴿ **أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ الآية ، فقال النبى ﷺ أنت زيد بن حارثة بن شراحبيل .

---

(١) الفتوحات الألهية ٣/ ٤٢٢ .

(٢) فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب فضل زيد بن حارثة ١٥ / ١٩٥ .

(٣) فى سننه كتاب المناقب ٥ / ٦٧٦ .

وكان من خبره أنه أُسر فى الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فاستوهبه النبى ﷺ منها ، ثم طلبه أبوه وعمه ، فخُير بين أن يبقى مع رسول الله ، أو أن يذهب مع أبيه فاختار البقاء مع رسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه . وكانوا يقولون زيد بن محمد ، فلما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش وكانت زوجاً لزيد وطلقها ، قال المنافقون تزوج محمد إمرأة إبنه ، وهوينهى عن ذلك ، فنزلت الآية لنفى أن يكون للمتبنىّ حكم الأبن حقيقة فى جميع الأحكام التى تعطى للابن [١] .

وقتل زيد بمُؤته من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة ، وكان النبى ﷺ آمَّره فى تلك الغزاة ، وقال : " إن قُتل زيد فجعفر فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحه " فقتل الثلاثة ــ فى تلك الغزاة ــ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .ولما أتى رسول الله ﷺ نَعْى زيد وجعفر بكى وقال : " أخواى ومؤنساى ومحدِّثاى " [٢] .

المباحث

١ــ قوله تعالى : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾ كلام مستأنف مسوق للرد على مزاعم المشركين بأن لبعضهم قلبين فهو اعقل من محمد .

والمراد منه : أن الإنسان لايمكن أن يكون له قلبان يجمع بهما بين الضدين وهما ابتغاء مرضاة الله وابتغاء مرضاة الكافرين والمنافقين بالله

---

(١) فتح البارى لابن حجر ٨ / ٨٨ .

(٢) تفسير القرطبى ١٤ / ٨٠ .

بل قلب واحد إذا صدق فى التوجه إلى شيء لا يمكنه أن يتوجه إلى ضده بالصدق والإخلاص فيكون فى وقت واحد مخلصاً لله ومخلصاً لأعداء دينه .

٢ ـ قوله : ﴿ **وما جعل أزواجكم الائى تظاهرون منهن أمهاتكم** ﴾

كانت العرب تُطَلِّقَ نساءها فى الجاهلية بهذه الكلمة (أنت عليّ كظهر أمى) ، وكان الظهار فى الجاهلية طلاقا وقد كان الرجل فى الجاهلية متى قال هذه المقالة لإمرأته صارت حراماً عليه حرمة مؤبدة ، فلما جاء الإسلام منع هذا التأبيد ، وجعل الحرمة مؤقتة ، حتى يؤدى كفارة لانتهاكه حرمة الدين ، إذ حرم ما أحل الله .

قال الشافعى : " سمعت من أهل العلم بالقرآن أن أهل الجاهلية كانوا يطلقون بثلاث : الظهار ، والإيلاء ، والطلاق ، فأقر الله تعالى الطلاق ، وحكم فى الإيلاء بأن أمهل المولى أربعة أشهر ، ثم جعل عليه أن يفئ أو يطلق ، وحكم فى الظهار بالكفارة ، فإذا ظاهر الرجل من امرأته يريد طلاقها ، أو يريد تحريمها بلا طلاق ، فلا يقع به طلاق بحال وهو متظاهر ، وكذلك إن تكلم بالظهار ولا ينوى شيئا فهو مظاهر ، لأنه متكلم بالظهار " (١) .

والظهار حرام ، وقد شدد الله تعالى على تحريمه ، وجعله منكرا من القول وزورا ، قال تعالى : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم

---

(١) الأم للإمام الشافعى ٢٦٢/٥ ، طبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة

ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكــرا مــن القول وزورا وإن الله لعفو غفور ﴾ [1]

قال الزمخشرى فى معنى أنت على كظهر أمى: " أرادوا أن يقولـوا أنت على حرام كبطن أمى فكنوا عن البطن بالظهر لئلا يذكروا البطـن الذى ذكره يقارب ذكر الفرج ، وإنما جعلوا الكناية عن البطن بالظـهر لأنه عمود البطن . ومنه حديث عمر ــ رضى الله عنه ــ يجـئ بـه أحدهم على عمود بطنه أراد على ظهره .

ووجه أخر : وهو أن إتيان المرأة وظهرها إلى السماء كان محرمـاً عندهم ، ومحظوراً ، وكان أهل المدينة يقولـون : إذا أتيـت المـرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول فلقصد المطلق منهم إلى التغليـظ فى تحريم امرأته عليه شبهها بالظهر ، ثم لم يقنع بذلـك حتـى جعلـه كظهر أمه " [2] .

والواو : عاطفة ، وما : نافية ، وجعل : فعل ماض وفاعل مسـتتر يعود على الله . أزواجكم : مفعول جعل الأول . واللائى : اسم موصول صفة . وجملة " **تظاهرون** " صلة . ومنهن : جار ومجرور متعلقـان بتظاهرون ، وأمهاتكم : مفعول جعل الثانى .

٣ ــ قوله تعالى : ﴿ **وما جعل أدعياءكم آبنائكم** ﴾ كما قـال تعـالى:

﴿ **ما كان محمدُ أبا أحد من رجالكم ولكـن رسـول الله وخـاتم النبيين** ﴾ [3] .

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢ .

(٢) الكشاف ٣ / ٢٢٧ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

وفى هذا إبطال لما كان فى الجاهلية وصدر الإسلام من أنـــه : إذا تبنى الرجل ابن غيره أجريت عليه احكام الابن النسبى ، وقـــد تبنـــى رسول الله ﷺ قبل البعثة زيد بن حارثة . وعمر بن الخطاب عامر بـن ربيعة . وأبو حذيفة سالماً .

وأدعياءكم : مفعول جعل الأول . وأبناءكم : مفعول جعل الثانى .

ثم أكد ما سبق قوله .

٤ ـ ﴿ **ذلكم قولكم بأفواهكم** ﴾ أى هذا الذى تقدم مـــن قـــول الرجـــل لإمرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، ودعاء من ليس بابنه أنه ابنـــه إنما هو قولكم بأفواهكم ، لا حقيقة له ، فلا تصير الزوجة أماً ولا يثبت بهذا الدعاء دعوى النسب .

وذلكم : مبتدأ والإشارة للنسب ، وقولكم : خبر ، وبأفواهكم : حـــال أى كائنا بأفواهكم فقط من غير أن تكون له حقيقة .

٥ ـ ﴿ **والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** ﴾

والمعنى : أن الله تعالى هو الصادق ، الذى يقول الحق المطـــابق للواقع وهوالذى يبين لعباده سبيل الحق ويهديهم طريق الرشاد ، فدعـــوا قولكم ، وخذوا بقوله عز وجل . وفى هذا إرشاد للعباد إلى قول الحـــق وترك قول الباطل والزور .

والواو : للحال أو للاستئناف . والله : مبتدأ ، وجملة يقول خبر . والحق : صفة لمصدر محذوف أى القول الحق ، ويجـــوز أن يكـــون مفعولاً .

وهو : مبتدأ ، وجملة يهدى السبيل خبر . والسبيل : منصـــوب بنزع الخافض .

ولما ذكر سبحانه أنه يقول الحق فصّل هذا وأرشدهم إليه فقال :

٦ ـ ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ : أى انسبوا أدعيائكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم لآبائهم فقولوا : زيد بن حارثة ، ولا تقولوا زيد بن محمد ، فذلك أعدل فى حكم الله وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم .

وجاء قوله ﴿ **أقسط** ﴾ بصيغة التفضيل لبيان أن النبى ﷺ لما نسب زيد إليه كان هذا النسب فى حكم الرسول قسط لأن زيد اختار النبى ﷺ على أهله ولكن كان الحكم الإلهى أقسط بالنسبة إلى حكم البشرية فجاء بصيغة التفضيل .

والكلام هنا مستأنف لبيان أن نسبة كل مولود إلى والده أقوم وأعدل .

﴿ **وادعوهم** ﴾ : فعل أمر وفاعل ومفعول به ، ﴿ **ولآبائهم** ﴾ جار ومجرور متعلقان بادعوهم .

﴿ **وهو** ﴾ : مبتدأ ، و﴿ **أقسط** ﴾ : خبر ، ﴿ **وعند الله** ﴾ : ظرف متعلق بمحذوف حال .

ثم تمم سبحانه الإرشاد فقال جل ذكره :

٧ ـ ﴿ **فإن لم تعلموا آبائهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم** ﴾ أى فإن لم تعرفوا آباء أدعيائكم من هم ؟ حتى تنسبوهم إليهم وتلحقوهم بهم ؛ فهم إخوانكم فى الدين إن كانوا قد دخلوا فى دينكم ، ومواليكم إن كانوا محرّرين على غرار قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون**

إخوة ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ [2] أى قولوا : هو مولى فلان ، ولهذا قيل لسالم بعد نزول الآية : مولى أبى حذيفة ، وكان قد تبناه من قبل .

والفاء : عاطفة ، وإن شرطية ، ولم : حرف نفى وقلب وجزم ، وتعلموا : فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعلة ، وآباءهم : مفعوله ، فإخوانكم : الفاء رابطة للجواب وإخوانكم خبر لمبتدأ محذوف ، أى فهم إخوانكم ، وفى الدين : حال ، ومواليكم : عطف على إخوانكم أى أبناء عمومتكم ، والمولى يطلق على عدة معان منها ابن العم .

٨ ـ ﴿ **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به** ﴾ أى لا إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأ من غير عمد .كأن يقول القائل لغيره (يابنى) بطريق الشفقة أو (يا أبى) بطريق التعظيم من غير قصد إلى إثبات النسب ـ وقد يكون سهوا أو سبق لسان .

والواو : عاطفة ، وليس : فعل ماضى ناقص ، وعليكم : خبر ليس المقدم ، وجناح اسمها المؤخر ، وفيما : صفة لجناح ، وجملة أخطأتم : صلة ، وبه : جار ومجرور متعلقان بأخطأتم .

٩ـ ﴿ **ولكن ما تعمدت قلوبكم** ﴾ ولكن الجناح والإثم عليكم فيما فعلتموه غامدين . أخرج ابن جرير [3] عن قتادة أنه قال فى الآية :

---

(١) سورة الحجرات من الآية ١٠ .

(٢) سورة التوبة من الآية ٧١ .

(١) فى تفسيره ٢١ / ٧٦ .

" إذا دعوت الرجل لغير أبيه وانت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه " .

١٠ ـ **﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾** أى وكان الله ستاراً لذنب من ظاهر من زوجته ، وذنب من ادعى ولد غيره إبناً له إذا تابا ورجعا إلى أمر الله وانتهيا ، رحيماً بهما فلا يعاقبهما على ذلك بعد توبتهما ، ومن رحمته رفع الحرج عن المخطئ .

ما يستفاد من الآيات

١ ـ **لم يكن من حكمته سبحانه أن يجعل للإنسان قلبين** ، لأنه إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر ، فأحدهما يكون نافلة غير محتاج إليه ، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، وهذا يؤدى إلى التناقض فى أعمال الإنسان ، فيكون مريداً للشئ كارهاً له ، وظاناً له موقناً به فى حال واحدة ، وهذا لن يكون .

٢ ـ **وليس من الحكمة أن تكون المرأة أماً لرجل وزوجاً له** .

٣ ـ **لم يشأ فى حكمته تعالى أن يكون الرجل الواحد دعيًا لرجل وإبناً له** ، لأن البنوة نسب أصيل عريق ، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لاغير ، ولا يجتمع فى الشىء الواحد أن يكون أصيلاً و غير أصيل .

٤ ـ **إن الله يغفر ذنوب المخطئين بعد التوبة** ، وما بعدها إذا كان نسياناً أو سبق لسان .

أبوة محمد ﷺ للمؤمنين أشرف لهم من أبوة النسب

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الارْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(٦) ﴾

علاقة هذه الآية بما قبلها :

بعد أن بين سبحانه فى الآيات السابقة : أن الدعىّ ليس إبنا لمن تبناه فمحمد ﷺ ليس أباً لزيد بن حارثة ، ثم أعقب ذلك بالإرشاد إلى أن المؤمن أخو المؤمن فى الدين ، فلا مانع أن يقول إنسان لآخر : أنت أخى فى الدين — أردف ذلك بيان أن محمدا ﷺ ليس أبا لواحد من أمته ، بل أبوته عامة ، وأزواجه أمهاتهم وأبوته أشرف من أبوة النسب ؛ لأن بها الحياة الحقيقية ، وهذه بها الحياة الفانية ، بل هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا حضهم على الجهاد ونحوه فذلك لارتقائهم الروحى ، فإذاً كيف يستأذن الناس آباءهم وأمهاتهم حيث أمرهم ﷺ بغزوة تبوك ، وهو أشفق عليهم من الآباء ، بل من انفسهم .

اخرج **البخارى** [1] **عن أبى هريرة قال** : إن رسول الله ﷺ قال : "ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة اقرءوا إن شئتم

---

(١) فى صحيحه كتاب التفسير ١٠ / ١٣٥ فتح البارى .

﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ فأيمّا مؤمن ترك مالاً فليرثـه عصبته من كانوا ، فإن ترك ديْناً أو ضياعاً " عيالاً " فليأتنى وأنـا مولاه " .

قال القرطبى [1] : قال بعض أهل العلم يجب على الإمام أن يقضى من بيت المال دين الفقراء إقتداءً بالنبى ﷺ ؛ فإنه قد صرح بوجـوب ذلك عليه حيث قال : " فعلىّ قضاؤه " .

سبب نزول الآيات :

روى أنه ﷺ أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أنـاس منهم : نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت ، ووجه دلالتها على السـبب أنه ﷺ إذا كان أولى من أنفسهم فهو أولى من الأبوين بالطريق الأولى .

المباحث

١ ـ قوله تعالى ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ أى النبى أشد ولاية ونصرة لهم من أنفسهم ، فإنه ﷺ لا يأمرهم إلا بمـا فيـه خيرهم وصلاحهم ، ولا ينهاهم إلا عما يضرهـم ويؤذيـهم فـى دنياهم وآخرتهم ، أما النفس فإنها أمارة بالسوء ، وقد تجهل بعض المصالح ، وتخفى عليها بعض المنافع .

ومما يلزم هذا أن يكون حكمه نـافذاً فيـهم ، مقدمـاً علـى مـا يختارونه لأنفسهم .وقيل المراد بأنفسهم فى الآية : بعضـهم ، فيكـون

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ١٤ / ٨٢ .

المعنى : أن النبى أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض . وقيل هى خاصة بالقضاء : أى : هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى به بينهم .

وقيل : أولى بهم فى الجهاد بين يديه وبذل النفس دونـــــه ، والأول أولى . (١)

والنبى : مبتدأ ، وأولى بالمؤمنين : خبر ، ومن أنفسهم : متعلقـــان بأولى .

٢ ـ ﴿ **وأزواجه أمهاتكم** ﴾ أى هن منزلات منزلة الأمـــــهات فـــى الحرمة والاحترام ، والتوقير والإكرام ، وتحريم النكاح ، وفيمــا عدا ذلك هن كالأجنبيات ، ، فلا يحل النظر إليهن ، ولا إرثهن ، ولا الخلوة بهن ولا نحو ذلك .

الواو عاطفة ، وأزواجه مبتدأ ، وأمهاتهم خبر .

وفى هذا **تشبيه بليغ** ووجه الشبه متعدد يتعلق ببعض الأحكام وهـــــى : وجوب تعظيمهن وإحترامهن وتحريم نكاحهن ، ولذلك قالت عائشـــــة : " لسنا أمهات النساء " تعنى أنهن إنما كن إمـــــهات الرجـــال لكونـــهن محرمات عليهم كتحريم أمهاتهم ولهذا كان لابد من تقدير أداة التشبيه فيه (٢)

٣ ـ ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين** ﴾ .

قال القرطبى : " قيل إنه أراد بالمؤمنين الأنصار ، وبالمـــــهاجرين قريشاً، وفيه قولان :

أحدهما : أنه ناسخ للتوارث بالهجرة .

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٤ / ٢٦١ .

(٢) تفسير القرطبى ١٤ / ٨٢ بتصرف .

حكى سعيد عن قتادة قال : كان نزل فى سورة الأنفال : ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا** ﴾ [١] فتوارث المسلمون بالهجرة ، فكان لا يرث الأعرابى المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئا حتى يهاجر ، ثم نسخ ذلك فى هذه السورة بقوله : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ .

الثانى : أن ذلك ناسخ للتوارث بالحلف والمؤخاة فى الدين .

روى **هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير** : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم ، فآخى أبو بكر، خارجة بن زيد ، وآخيت أنا كعب ابن مالك ، فجئت فوجدت السلاح قد أثقله ، فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيرى ، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا " [٢] .

وأولوا الأرحام : مبتدأ ، والأرحام : جمع رحم وهى القرابة ، وبعضهم : مبتدأ ثان أو بدل من أولى ، وأولى ببعض : خبر ولابد من تقدير مضاف محذوف أى بإرث بعض . وفى كتاب الله : متعلقان بأولى أو بمحذوف حال من الضمير فى أولى .

ومن المؤمنين : جار ومجرور متعلقان بأولى أيضاً أى الأقارب بعضهم أولى بإرث بعض من أن يرثهم المؤمنون والمهاجرون الأجانب .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٢ .

(٢) تفسير القرطبى ١٤ / ٨٣ .

والخلاصة : إن هذه الآية أرجعت الأمور إلى نصابها ، وأبطلت حكماً شُرع لضرورة عارضة فى بدء الإسلام ، وهو الإرث بالهجرة بين المهاجرين والأنصار ، وبالتآخى فى الدين دون أن يكون بينهما قرابة أو صلة رحم .

ثم استثنى من ذلك الوصية فقال :

٤ ــ ﴿ **إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا** ﴾

إلا : أداة استثناء . ولكن اختلف فيها ، هل الإستثناء متصل أم منقطع ؟

قيل الإستثناء متصل من أعم ما تقدر الأولوية فيه من النفع . كأنه قيل : القريب أولى من الأجنبى من المؤمنين والمهاجرين فى كل نفع من ميراث وصدقة وهدية ونحو ذلك إلا فى الوصية فإنها المرادة بالمعروف ، فالأجنبى أحق بها من القريب الوارث فإنها لا تصلح لوارث .

أخرج ابن جرير [١] عن محمد بن على بن الحنفية ــ رضى الله عنه ــ فى قوله ﴿ **إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً** ﴾ قال : نزلت هذه الآية فى جواز وصية المسلم لليهودى والنصرانى .

أيضاً: أخرج ابن جرير [٢] **عن قتادة** قال : للقرابة من أهل الشرك وصية ولا ميراث لهم .

وقيل الإستثناء منقطع ؛ كأنه قيل : لا تورثوا غير أولى الأرحام لكن فعلكم إلى أوليائكم من المؤمنين والمهاجرين الأجانب معروفاً وهو

---

(١) فى تفسيره ٢١ / ٧٨ .

(٢) المرجع السابق .

أن توصوا لمن أحببتم منهم بشئ فهو جائز فيكون ذلك له بالوصية لا بالميراث .

واستبعد بن جرير الطبرى أن يكون الإستثناء متصلا فقال :" وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصواب أن يقال معنى ذلك إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم الذين كان رسول الله ﷺ آخى بينهم وبينكم من المهاجرين والأنصار معروفاً من الوصية لهم والنصرة وما أشبه ذلك لأن كل ذلك من المعروف الذى حث الله عليه عباده "

ثم بين سر اختياره لهذا القول . فقال : " لأن القريب من المشرك وإن كان ذا نسب فليس بالمولى وذلك أن الشرك يقطع ولاية ما بين المؤمن والمشرك ، وقد نهى الله المؤمنين أن يتخذوا منهم ولياً بقوله : ﴿ **لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء** ﴾ [1] وغير جائز أن ينهاهم عن اتخاذهم أولياء ثم يصفهم جل ثناؤه بأنهم لهم أولياء " [2] أ . هـ .

ثم بين سبحانه أن هذا الحكم هو الأصل فى الإرث وهو الحكم فى كتابه الذى لايغير ولا يبدل ، فقال :

٥ ــ ﴿ **كان ذلك فى الكتاب مسطورا** ﴾ أى إن هذا الحكم ، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ــ حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الذى لا يبدل ولا يغير ، وإن كان قد شرع غيره فى

(١) سورة الممتحنة الآية ١ .

(٢) تفسير الطبرى ٢١ / ٧٨ ، ٧٩ .

وقت ما لمصلحة عارضة ، وحكمة بالغة ، وهو يعلم أنه سـيغيره إلى ما هو جار فى قدره الأزلى ، وقضائه التشريعى .

ويراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، ويجوز أن يراد بـه القـرآن الكريم .

والمسطور : المكتوب فى سطور .

وفى قوله : ﴿ **كان ذلك فى الكتاب مسطورا** ﴾ مـا يدعـوا إلـى اطمئنان القلوب واستمساكها بالأصل الكبير الذى يرجع إليه كل تشـريع وكل تنظيم .

أخذ الميثاق على الرسل

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا(٧)لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا(٨) ﴾

علاقة الآيتين بما قبلهما :

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أحكاماً شرعها لعباده ، وكان فيها أشياء مما كان فى الجاهلية ، وأشياء مما كان فى صدر الإسلام ، ثم أبطلت ونسخت ، أتبع ذلك بذكر ما فيه حث على التبليغ ولا يخشى ــ فى قول الحق ــ أحداً غير الله . كأنه جل ذكره يقول لنبيه ﷺ اتق الله ولا تخف أحداً واذكر أن الله أخذ العهد على النبيين فى أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع .

ويجوز أن تكون الآيتان مرتبطتين بما قبلهما ؛ وذلك أن الله تعالى لما أمر بتقوى الله واتباع وحيه والتوكل عليه ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، كما أبطل بعض العادات التى كانت سائدة الجاهلية . لما كان ذلك ، بين سبحانه فى هاتين الآيتين أن هذه الأوامر هى من المواثيق التى أخذها على النبيين والمرسلين .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم** ﴾ العامل فى الظرف " إذ " يجوز أن يكون " مسطورا " أى : كأن هذا الحكم

مسطورا فى الكتاب ووقت أخذنا وقيل : العامل محذوف : أى: واذكر حين أخذنا الميثاق •

والميثاق : هو العهد أو اليمين •

والمراد من الميثاق المأخوذ من النبيين : هو كافة عهودهم بتبليغ الرسائل والشرائع ، والدعوة إلى عبادة الله تعالى ، واتباع الدين الحق ، وأن يصدق بعضهم بعضا ، وأن يتبع بعضهم بعضا •

أخرج ابن جرير الطبرى (١) عن قتادة قال : " أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصا أن يصدّق بعضهم بعضا وأن يتبع بعضهم بعضا " .

ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم ، فقال :

﴿ ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ .

وإذا قيل : لماذا خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم ؟ **وما سر تقديم نبينا محمد ﷺ مع تأخر زمانه ؟**

أجيب : بأن وجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة ومن أولى العزم من الرسل ، وهذا من باب عطف الخاص على العام ، وذلك تنويها بمكانتهم •

وسر تقديم محمد ﷺ عليهم فى الذكر مع أنه آخرهم بعثة ، فيه من التشريف والتعظيم ما لا يخفى .

---

(١) فى تفسيره ٢١ /٧٩ .

أخرج ابن جرير [1] عن قتادة قوله ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم وَمنك ومن نوح** ﴾ قال : " وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول كنت أول الأنبياء فى الخلق وآخرهم فى البعث " .

أقول : وعلى فرض صحة هذه الرواية فيكون هذا سر من أسـرار تقديم نبينا ﷺ على سائر الأنبياء الذين خصهم الله بالذكر .

ونرى فى قوله تعالى ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومـن نوح ...** ﴾ تخصيص النبى ﷺ بمزيتين :

الأولى : تقديمه على سائر الأنبياء .

والثانية : تخصيصه بإدخال حرف " من " ضميره ﷺ " منك " ، ثم إدخال حرف " من " على مجموع الباقين .

ثم أكد سبحانه ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرار ذكـره فقال : ﴿ **وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ والمعنى : وأخذنا منهم عـهدا عظيم الشأن أو وثيقا قويا .

وفى وصف الميثاق بالغلظ إستعارة مكنية ، شبه الميثـاق بجـرم محسوس واستعار له شيئا من صفات الأجرام وهو الغلظ للتنويه بعظـم الميثاق وجلاله .

ثم بين سبحانه علة أخذ الميثاق على النبيين فقال :

﴿ **ليسأل الصادقين عن صدقهم** ﴾ . قال القرطبى [2] فيه أربعـة أوجه :

---

(١) المرجع السابق ٢١ / ٧٩ .

(٢) فى تفسيره ١٤ / ٨٥ .

أحدها : ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، حكاه النقاش وفى هذا تنبيه ؛ أى : إذا كان الأنبياء يُسألون فكيف مَن سواهم .

الثانى : ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم .

الثالث : ليسأل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ عن الوفاء بالميثاق الذى أخذه عليهم .

الرابع : ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة ، وفى التنزيل :

﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [١].

وسر سؤال الرسل تبكيت للكافرين بهم كقوله تعالى : ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم** ﴾ [٢] ﴿ **أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ** ﴾ [٣].

وجملة : ﴿ **وأعد للكافرين عذابا أليما** ﴾ .

قيل : معطوف على مقدر دل عليه (ليسأل الصادقين) والتقدير : أثاب الصادقين وأعد للكافرين عذاباً أليماً .

ويجوز أن يكون معطوفاً على " أخذنا " ، لأن المعنى : أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه ليثيب المؤمنين وأعد للكافرين عذاباً أليماً [٤] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٩ .

(٣) سورة المائدة الآية ١١٦ .

(٤) روح المعانى للألوسى ٢١ / ١٥٥ .

وقيل : إنه قد حذف من الثانى ما أثبت مقابله فـــى الأول . ومــن الأول ما أثبت مقابله فى الثانى ، والتقدير : ليســـأل الصـــادقين عــن صدقهم فأثابهم ، ويسأل الكافرين عما أجابوا به رسلهم وأعد لهم عذابــا أليما ، على سبيل الاحتباك [1] .

ويجوز أن يكون الكلام تم عند قوله : ﴿ **ليســـأل الصـــادقين عــن صدقهم** ﴾ وتكون جملة ﴿ **وأعد لهم** ﴾ مستأنفة لبيان ما أعده للكفار .

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ١٦١/٧ .

غزوة الأحزاب ـ وقعة الخندق

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا(٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونا (١٠) ﴾

علاقة الآية بما قبلها :

بعد أن أمر سبحانه عباده بتقواه وعدم الخوف ممن سواه ، ذكر في هذه الآيات تحقيق ما سلف ؛ فأبان أنه قد أنعم على عباده ، إذ صرف عنهم أعدائهم حين تحزبوا لقتال الرسول والمسلمين عام الخندق ، وكان الأمر في غاية الشدة والخوف ، ولكن الله تعالى دفع عنهم من غير قتال وأمنهم من الخوف . وكأن الله تعالى يقول : إني كاف عن عبادي إذا اتقون ولا خوف عليهم ولا يحزنون .

تفسير المفردات :

المراد بالجنود هنا : الأحزاب ، وهم قريش يقودهم أبو سفيان ، وبنو أسد يقودهم طليحة ، وغطفان يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل ، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمي ، وبنو النضير من اليهود ، ورؤساؤهم حُييّ بن أحطب ، وأبناء أبي الحقيق ، وبنو قريظة من اليهود أيضاً سيدهم كعب بن أسد ، وكان بينهم

وبين رسول الله ﷺ عهد فنبذه كعب بسعي حييّ ، وكان مجمـــوع جيــوش الأعداء عشرة آلاف أو نحو ذلك [١] .

والجنود التى لم يروها : هى الملائكة ؛ حيث ألقوا التخاذل بين الأحـزاب وكانوا وسيلة إلقاء الرعب فى نفوسهم .

﴿ **من فوقكم** ﴾ أى من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا بنى غطفان ومن تابعهم من أهل نجد وبنو قريظة وبنو النضير [٢] .

﴿ **ومن أسفل منكم** ﴾ : أى من أسفل الوادى من قبـــل المغــرب ، وكانوا قريشاً ومن شايعهم ، وبنى كنانة وأهل تهامة .

ويحتمل أن يكون من فوق ومن أسفل كناية عن إحاطـــة الأحــزاب بالمسلمين من جميع الجوانب ، والجهات وتمكنهم منهم كل تمكن .

﴿ **زاغت الأبصـــار** ﴾ : أى انحرفــت عــن مســتوى نظرهــا حــيرة ودهشة ، وبلغت القلوب الحنـــاجر : أى خـــافت خوفـــاً شــديداً وفزعــت فزعاً عظيمـــاً .

قيل : إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب ، ربت وارتفع القلــب بإرتفاعها إلى رأس الحنجرة [٣] ، وقيل : هو مثل فى اضطراب القلــب وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة [٤].

﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ : أى تظنون بالله تعـــالى انـــواع الظنـــون المختلفة فيظن المخلصون منكم الثابتون فى ساحة الإيمان أن ينجز ســـبحانه

---

(١) انظر تفسير المراغى ٢١ /١٣٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) البحر المحيط ٨ / ٤٥٨ .

(٤) تفسير أبى السعود ٧ / ٩٣ .

وعده فى إعلاء دينه ونصرة نبيه ﷺ ، ويعرب عن ذلك ما سيحكى عنهم فى قوله ﴿ **هذا ما وعدنا الله ورسوله** ﴾ الآية ، ويظن المنافقون والذين فى قلوبهم مرض أن محمدا ﷺ وأصحابه يستأصلون وهو ما حكى عنهم فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ يقول المنافقون .** ﴾ الآية .

وتفصيل هذا على ما قاله أرباب السير [1] : أن نفراً من اليهود قدموا على قريش فى شوال سنة خمس من الهجرة بمكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا لهم : إن دينكم خير من دينه ثم جاءوا غطفان وقيساً وعيلان ، وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه فخرجت هذه القبائل ومعها قاداتها وزعمائها .

ولما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة بإشارة سلمان الفارسى وعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون وأحكموه ، وكان رسول الله ﷺ يرتجز بكلمات ابن رواحه ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا	**ولا تصدقنا ولا صلينا**
فأنزلن سكينة علينا	**وثبت الأقدام إن لاقينا** [2]

وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم . فلما رأى ما بهم من النصب و الجوع قال :

اللهم إن العيش عيش الآخرة	**فاغفر للأنصار والمهاجرة**

فقالوا مجبين له :

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٣٥/٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الجهاد . باب الرجز فى الحرب ٦ / ٥٠٢ من الفتح .

نحن الذين بايعنا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً [(١)]

وبهذه المناسبة وقع فى حفر الخندق آيات ومعجزات للنبى ﷺ .

رأى **جابر بن عبد الله** فى النبى ﷺ خصماً شديداً ، فذبح بهيمة وطحنت امرأته صاعاً من شعير ثم التمس من رسول الله ﷺ سراً أن يأتى فى نفر من أصحابه ، فقام النبى ﷺ بجميع أهل الخندق ، وهم ألف فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا ، وبقيت برمة اللحم تغطى به كما هى ، وبقى العجين كما هو [(٢)] .

وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر ليتغذى أبوها وخالها فمرت برسول الله ﷺ فطلب منها التمر وصبه فوق ثوب ، ثم دعا أهل الخنق فجعلوا يأكلون منه ، وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه يسقط من أطراف الثوب[(٣)] .

وأعظم من هذين ما أخرجه انبخارى [(٤)] عن جابر قال : " إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدْية شديدة فجاءوا النبى ﷺ فقالوا هذه كُدية عرضت فى الخندق ، فقال : أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ــ ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ــ فأخذ النبى ﷺ المعول فضرب فى الكدية فعاد كثيباً أهيل أو أهثم " أى صار رملاً لا يتماسك .... " الحديث .

---

(١) المصدر السابق باب التحريض على القتال ٦ / ٣٨٦ من الفتح .

(٢) رواه الترمذى فى مشكاة المصابيح ٢ / ٤٤٨ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٣٨ ــ ٢٣٩ .

(٤) فى صحيحه . كتاب المغازى ٨ / ٣٩٩ من الفتح .

موقف نَعُيم بن مسعود فى غزوة الخندق :

رُوِى [1] **عن نعيم بن مسعود قال** : كانت بنو قريظة أهل شرف وأموال ، وكنا قوماً عرباً ، لا نخل لنا ولا كَرْم ، وإنما نحن أهل شاة وبعير . فكنت أقدم على كعب بن أسد فأقيم عندهم الأيام ، أشرب من شرابهم وآكل من طعامهم ، ثم يُحمّلونني تمراً على ركابى ما كانت ، فأرجع إلى أهلى . فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله ﷺ سرت مع قومى ، وأنا على دينى ، وقد كان رسول الله ﷺ عارفاً ، فأقامت الأحزاب ما أقامت حتى أجدب الجناب ، وهلك الخف والكراع ، وقذف الله عز وجل فى قلبى الإسلام . وكتمت قومى إسلامى ، فخرجت حتى أتيتِ رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء فوجدته يصلى ، فلما رآنى جلس ثم قال : ما جاء بك يا نُعَيْمْ ؟ قلت : إنى جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق ، فمرنى بما شئت يا رسول الله ، فوالله لا تأمرنى بأمر إلا مضيت له ، قومى لا يعلمون بإسلامى ولا غيرهم . قال : ما استطعت أن تُخَذِّل الناس فخذل ! قال : قلت : أفعل ، ولكن يا رسول الله أقول فأذن لى . قال : قل ما بدا لك فأنت فى حل . قال : فذهبت حتى جئت بنى قريظة ، فلما رأونى رحبوا وأكرموا وحيوا وعرضوا علىّ الطعام والشراب ، فقلت : إنى لم آت لشئ من هذا ، إنما جئتكم نصباً بأمركم ، وتخوفاً عليكم ، لأشير عليكم برأى ، وقد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم . فقالوا قد عرفنا ذلك وأنت عندنا على ما

---

(٣) المغازى للواقدى ٢ / ٤٨٠ ـــ ٤٨٨ .تحقيق الدكتور مارسون جونس دار المعارف ١٩٦٥م .

تحب من الصدق والبر . قال : فاكتموا عنى . قالوا نفعل . قال : إن أمر هذا الرجل بلاء ــ يعنى النبى ﷺ ــ صنع ما قد رأيتم ببنى قينقاع وبنى النضير ، وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال . وكان ابن أبى الحقيق قد سار فينا فاجتمعنا معه لنصركم ، وأرى الأمر قد تطاول كما ترون ، وإنكم والله ، ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة ، أما قريش وغطفان فهم قوم جاءوا سيارة حتى نزلوا حيث رأيتم ، فإن وجدوا فرصة انتهزوها ، وإن كانت الحرب ، أو أصابهم ما يكرهون انشمروا إلى بلادهم وأنتم لا تقدرون على ذلك ، البلد بلدكم فيه أموالكم ونساؤكم ، وقد غَلُظَ عليهم جانب محمد ، أجلبوا عليه أمس إلى الليل ، فقتل رأسهم عمرو ابن عبد ، وهربوا منه مُجَرّحين وهم لا غناء بهم عنكم ؛لما تعرفون عندكم . فلا تقاتلوا مع قريش ولا غطفان حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم تستوثقون به منهم ألا يناجزوا محمدا. قالوا : أشرت بالرأى علينا والنصح . ودعوا له وتشكروا ، وقالوا نحن فاعلون . قال : ولكن اكتموا عنى . قالوا : نعم ، نفعل . ثم خرج إلى أبى سفيان بن حرب فى رجال من قريش فقال : يا أبا سفيان . قد جئتك بنصيحة فاكتم عنى . قال أفعل . قال : تعلم أن قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وأرادوا إصلاحه ومراجعته . أرسلوا إليه وأنا عندهم : إنا سنأخذ من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلاً نسلمهم إليك تضرب أعناقهم وترد جناحنا الذى كسرت إلى ديارهم ــ يعنون بنى النضير ــ ونكون معك على قريش حتى نردهم عنك . فإن بعثوا إليكم

يسألونكم رهنا فلا تدفعوا إليهم أحدا واحذروهم على أشرافكم ، ولكن اكتموا عنى ولا تذكروا من هذا حرفاً . قالوا : لا نذكره . ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، إنى رجل منكم فاكتموا عنى ، واعلموا أن قريظه بعثوا إلى محمد ــ وقال لهم مثل ما قال لقريش ــ فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحدا من رجالكم . وكان رجلا منهم فصدقوه ، وأرسلت اليهود غزّال بن سَمْوْأَل إلى أبى سفيان بن حرب وأشراف قريش : أن ثَواءكم قد طال ولم تصنعوا شيئا وليس الذى تصنعون برأى ، إنكم لو وعدتمونا يوما تزحفون فيه إلى محمد ، فتأتون من وجه وتأتى غطفان من وجه ونخرج نحن من وجه أخر ، لم يفلت من بعضنا . ولكن لا نخرج معكم حتى ترسلوا إلينا برهان من أشرافكم يكونون عندنا فإنا نخاف إن مستكم الحرب وأصابكم ما تكرهون شمرتم وتركتمونا فى عُقْر دارنا وقد نابذنا محمدا بالعداوة . فانصرف الرسول إلى بنى قريظة ولم يرجعوا إليهم شيئا، وقال أبو سفيان : هذا ما قال نعيم . فخرج نعيم إلى بنى قريظة فقال : يا معشر بنى قريظة ، أنا عند أبى سفيان جاء رسولكم إليه يطلب منه الرهان ، فلم يرد عليه شيئا فلما ولَّى قال : لو طلبوا منى عناقا (١) ما رهنتها ! أنا أرهنهم سراة أصحابى يدفعونهم إلى محمد يقتلهم ! فارتأوا آرائكم حتى تأخذوا الرهن ، فإنكم إن لم تقاتلوا محمدا وانصرف أبو سفيان تكونوا على مواعدتكم الأولى . قالوا : ترجو ذلك يا نعيم ؟ قال : نعم . قال كعب بن أسد فإنا لا نقاتله . والله ، لقد كنت لهذا كارها ولكن حُيى رجل

---

(١) العناق : الأنثى من أولاد الماعز . القاموس المحيط ٢٦٩/٣ .

مشئوم . قال الزبير بن باطا : إن انكشفت قريش قريش وغطفان عن محمد لم يقبل منا إلا السيف . قال نعيم : لا تخشى ذلك يا أبا عبد الرحمن . قال الزبير : بلى والتوراة ، ولو أصابت اليهود رأيها وتحتم الأمر لتخرجن إلى محمد ولا يطلبون من قريش رهنا ، فإن قريشا لاتعطينا رهنا أبدا، وعلى أى وجه تعطينا قريش الرهن وعددهم أكثر من عددنا ، ومعهم كراع ولا كراع معنا ، وهم يقدرون على الهرب ونحن لا نقدر عليه ؟ وهذه غطفان تطلب إلى محمد أن يعطيها بعض تمر الأوس وتنصرف ، فأبى محمد إلا السيف ؛ فهم ينصرفون بغير شئ . فلما كان ليلة السبت كان مما صنع الله تعالى لنبيه أن قال أبو سفيان : يا معشر قريش إن الجناب قد أجدب ، وهلك الكراع والخف ، وغدرت اليهود وكذبت ، وليس هذا بحين مقام فانصرفوا ! قالت قريش : فاعلم علم اليهود واستيقن خبرهم . فبعثوا عكرمة بن أبى جهل حتى جاء بنى قريظة عند غروب الشمس مساء ليلة السبت فقال : يا معشر اليهود إنه قد طال المكث وجهد الخف والكراع وأجدب الجناب ، وإنا لسنا بدار مقامة ، اخرجوا إلى هذا الرجل حتى نناجزه بالغداة . قالوا غداً السبت لا نقاتل ولا نعمل فيه عملاً ، وإنا مع ذلك لا نقاتل معكم إذا انقضى سبتنا حتى تعطونا رهاناً من رجالكم يكونون معنا لئلا تبرحوا حتى نناجز محمداً فإنا نخشى أن أصابتكم الحرب أن تشمروا إلى بلادكم وتدعونا وإياه فى بلادنا ولا طاقة لنا به ، معنا الزرارى والنساء والأموال ، فرجع عكرمة إلى أبى سفيان فقالوا : ما وراءك ؟ قال : أحلف بالله إن الخبر الذى جاء به نعيم

حق ، لقد غدر أعداء الله . وأرسلت غطفان إليهم مسعود بن رخيلة فـي رحال منهم بمثل رسالة أبى سفيان ، فأجابوهم بمثل جواب أبـى سـفيان : وقالت اليهود حيث رأوا ما رأوا منهم : نحلف بالله إن الخبر الـذى قال به نعيم لحق . وعرفوا أن قريشاً لا تقيم فسقط فى أيديهم فكـرّ أبو سفيان إليهم وقال : إنا والله لا نفعل ، إن كنتـم تريـدون القتـال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت اليهود مثل قولهم الأول ، وجعلت اليـهود تقول : الخبر ما قال نعيم . وجعلت قريش وغطفان تقول : الخبر ما قال نعيم . ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء ، ويئس هؤلاء من نصـر هؤلاء . واختلف أمرهم ، فكان نعيم يقول : أنا خذّلت بيـن الأحـزاب حتى تفرقوا فى كل وجه ، أنا أمين رسول الله ﷺ على سـره . فكـان صحيح الإسلام بعدُ ".

وحيئذ تخاذل اليهود والعرب ، ودب بينهم دبيب الفشل . وممـا زاد فى فشلهم أن بعث الله عليهم ريحاً فى ليلة شاتية شديدة البرد ، فجعلـت تكفى قدورهم وتطرح آنيتهم .

وقد قام رسول الله ﷺ ليلة يصلى على التل الذى عليه مسـجد الفتح ، ثم يلتفت ويقول هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعـل القـوم ؟ فعل ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم رجل واحد ، من شدة الخـوف وشـدة الجوع ، وشدة البرد ، فدعا حذيفة بن اليمان وقـال : ألـم تسـمع كلامى منذ الليلة ؟ قال حذيفة : يا رسول الله منعنى أجيبك الضـر

والقُرّ [١] قال : انطلق حتى تدخل فى القوم ، فتسمع كلامهم وتـأتنى بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن وخلفه ، وعن يمينه وعـن شماله ، حتى ترده إلىّ انطلق ولا تُحْدث شيئاً حتى تأتينى ، فـانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله ﷺ يـده يقـول : يـا صريـخ المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربـى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى فنزل جبريل وقال : إن الله قد سـمع دعوتك ، وكفاك عدوك ، فخر رسول الله ﷺ على ركبتيه ، وبسـط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول شكراً شكراً كما رحمتنى ورحمـت أصحابى ، وذهب حذيفة إلى القوم ، فسمع أبا سفيان يقول ، قد هلـك الكُراع والخُف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الـذى نكـره ، ولقينا من هزة الريح ما ترون ،فارتحلوا فإنى مرتحل ، فلما رجـع أخبر رسول الله ﷺ فضحك حتى بدت أنيابه فى سواد الليل [٢] .

وروى الواقدى بسنده : عن ابـن المسـيب ، قـال : كـان محاصرة المشركين رسول الله ﷺ فى الخندق بضعة عشر يومـاً ، **وعن جابر بن عبد الله** ، قال : عشرين يوماً . ويقال خمس عشـر يوماً [٣] ثم اختار القول الأخير . فقال : وهذا أثبت عندنا .

---

(١) القر : البرد . يقال هذا يوم قر أى ذو برد . لسان العرب ٨٢/٥ .

(٢) راجع المغازى ٢/٤٩٠ ــ ٤٩١ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٣٤٣/٣ .

(٣) المغازى ٢ / ٤٩١ .

والخلاصة : إنه تعالى يمتن على عباده المؤمنين بذكر النعم التى أنعم بها عليهم ، إذ صرف عنهم أعداءهم حين تألبوا عليهم وتحزبوا عام الخندق .

وقوله : ﴿**وكان الله بما تعملون بصيرا** ﴾ أى : وكان الله عليماً بجميع أعمالكم من حفركم للخندق ، وترتيب وسائل الحرب لإعلاء كلمته ، ومُقاساتكم من الجهد والشدائد مالا حصر له ، بصيراً بما لا يخفى عليه شئ منها ، وهو يجازيكم عليها .

ثم زاد الأمر تفصيلا وبيانا فقال : ﴿ **إذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم** ﴾ أى حين جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا من غطفان ، ومن تابعهم من أهل نجد ، ومن بنى قريظة والنضير من اليهود ، ومن أسفله من قبل المغرب ، وكانوا من قريش ، ومن شايعهم من الأحابيش ، وبنى كنانة وأهل تهامة .

ويحتمل أن يكون من أعلى ومن أسفل كناية عن الإحاطة من جميع الجوانب كأنه قيل : إذ جاءوكم محيطين بكم كقوله تعالى :﴿ **يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾ (١)

وقوله :﴿ **واذ زاغت الأبصار** ﴾ معطوفه على ما قبلها داخله معها فى حكم التذكير ، أى : واذكر حين مالت الأبصار عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٥٥ .

﴿ **وبلغت القوب الحناجر** ﴾ أى خافت خوفاً شديدا وفزعت فزعاً عظيماً لأنها تحركت عن موضعها وتوجهت إلى الحناجر لتخرج ، فالكلام على المبالغة .

وقوله : ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ الألف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعنى : تظنون كل الظن لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئاً ، ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة ، لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله ومن الكافر الظن بالسوء .

وإنما جمع الظن لاختلاف أنواعه لأن من خلص إيمانه ظن أن ما وعدهم الله به من النصر حق ، ومن ضعف إيمانه اضطرب ظنه ، ومن كان منافقا ظن أن الدائرة تكون على المؤمنين فأخلفت ظنونهم . فقوله ﴿ **الظنونا** ﴾ أفاد أن فيهم من أخطأ الظن ، ولو قال تظنون بالله ظنا ما كان يفيد هذا المعنى .

الإعراب

﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ يا : حرف نداء ، وأيها : منادى نكره مقصوده مبنى على الضم فى محل نصب والهاء للتنبيه ، والذين بدل من أيها وجملة آمنوا : صلة الموصول .

وقوله ﴿ **اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود** ﴾ اذكروا : فعل أمر وفاعل ونعمة الله : مفعول به وعليكم : متعلقان بنعمة أو بمحذوف حال . وإذ : ظرف لما مضى من الزمن متعلق باذكروا فهو بمثابة بدل الاشتمال من نعمة الله ، والمراد بالنعمة : نصره فى غزوة

الأحزاب وجملة ﴿ **جاءتكم جنود** ﴾ فى محل جر بإضافة الظـــرف إليها .

وقوله :﴿ **فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بمـــا تعملون بصيرا** ﴾ فأرسلنا : عطف على جاءتكم وعليهم : متعلقـــان بأرسلنا ، وريحا : مفعول به وجنودا : عطف على ريحا وجملة لم تروها : صفة لـــ ﴿ **جنوداً** ﴾ . وكان الله : كان وإسمها ، وبمـــا: متعلقان ببصيراً وجملة تعملون : صلة . وبصيرا : خبر كان .

قوله :﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم** ﴾ الظرف بـــدل من ﴿ **إذ جاءوكم** ﴾ وجملة جاءوكم مضاف إليها . ومـــن فوقكـــم متعلقان بجاءوكم . ومن أسفل منكم عطف على من فوقكم .

قوله ﴿ **وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا** ﴾ عطف على " إذ " السابقة وكذلك بلغت القلوب الحنـــاجر وتظنون بالله الظنونا . والظنونا : مفعول مطلـــق والألـــف مزيـــدة تشبيها للفواصل بالقوافى .

أى : اذكروا وقت مجئ الجنود ووقت زيغ الأبصـــــار وبلـــوغ القلوب الحناجر وحدوث الظن ، وهذا من قبيل عطف الجمل علـــى الجمل ،

عند الشدائد يظهر المخلص من المنافق

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا(١١)وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا(١٢)وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا(١٣) ﴾

معانى المفردات :

﴿**هنالك** ﴾ : ظرف زمان أو ظرف مكان لما بعده أى فى ذلك الزمان الهائل أو المكان الدحض .

﴿ **والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ : أى : ضعف اعتقاد .

﴿ **ما وعدنا الله ورسوله** ﴾ : من إعلاء الدين والظفر .

﴿ **إلا غرورا**﴾ : أى وعد وغرور ، وقيل : قولاً باطلاً .

﴿ **يا أهل يثرب** ﴾ : هو إسم المدينة المطهرة . وقيل إسم بقعة وقعت المدينة فى ناحية منها . وقد نهى النبى ﷺ أن تسمى بها كراهة لها وقال هى طيبة أو طابة وكأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة له ﷺ ، ونداؤهم إياهم بعنوان أهليتهم لها ترشيح لما بعده من الأمر بالرجوع إليها .

الإعراب :

قوله :﴿ **هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً** ﴾ هنالك : اسم إشارة فى محل نصب على الظرفية المكانية . واللام : للبعد والكاف : للخطاب ، وهو متعلق بابتلى ، ويجوز أن يكون ظرف زمان

وابتلى : فعل ماضى مبنى للمجهول . والمؤمنـــون : نـــائب فـــاعل . وزلزلوا : عطف على ابتلى والواو نائب فاعل . وزلزالاً : مصدر مبين للنوع . وشديداً : صفة .

المعنى العام :

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلـــت الأحـــزاب حـــول المدينة ، والمســـلمون محصـــورون فـــى غايـــة الجـــهد والضيـــق ، ورسول الله ﷺ بيـــن أظـــهرهم ، أنـــهم ابتلـــوا واختـــبروا وزلزلـــوا زلزالاً شديدا ، فحينئذ ظهر النفاق وتكلم الذيـــن فـــى قلوبـــهم مـــرض بما فى أنفسهم ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذيـــن فـــى قلوبـــهم مـــرض ما وعدنا الله ورســـوله إلا غـــرورا** ﴾ أى : حيـــن قـــال المنـــافقون كمعتّب بن قُشَير ، والذين فى قلوبـــهم ضعـــف فـــى الإيمـــان لقـــرب عهدهم بالإسلام : ما وعدنا الله ورسوله من الظفـــــر والنصـــر علـــى العدو إلا وعدا باطلا يغرنا بـــه ويوقعنـــا فيمـــا لا طاقـــة لنـــا بـــه ، ويسلخنا عن دين آبائنا ، ويقـــول : إن هـــذا الديـــن ســـيظهر علـــى الدين كله ، وإنه سيفتح لنا فـــارس والـــروم .

أخرج الطبرى [1] بسنده عن ابـــن زيـــد قـــال : قـــال رجـــل يـــوم الأحزاب لرجل من صحابـــة النبـــى ﷺ يـــا فـــلان أرأيـــت إذ يقـــول رسول الله ﷺ إذا هلك قيصر فلا قيصـــــر بعـــده وإذا هلـــك كســـرى فلا كسرى بعده والذى نفسى بيده لتنفقـــــن كنوزهمـــا فـــى ســـبيل الله فأين هذا من هذا وأحدنا لا يستطيع أن يخـــرج يبـــول مـــن الخـــوف

---

(١) تفسير الطبرى ٢١ / ٨٥ .

ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . فقال له كذبت لأخبرن رسول الله ﷺ خبرك قال فأتى رسول الله ﷺ فأخبره فدعاه فقال : ما قلت ؟ . قال كذب عليّ يا رسول الله ما قلت شيئا ما خرج هذا من فمي قط . قال الله ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر** ﴾ حتى بلغ ﴿ **وما لهم من ولى ولا نصير** ﴾ قال فهذا قول الله أن نعف عن طائفة منكم ونعذب طائفة .

وعبر بصيغة المضارع فى قوله : ﴿ **وإذ يقول المنافقون ...** ﴾ استحضار للصورة الماضية ، وإشارة إلى أن مثل هذا القول المتخاذل اليائس من رحمة الله تعالى يتكرر كثيرا ويتجدد مع الزمان والأجيال من مثل هذه الفئة فى كل زمان ومكان .

وقال : ﴿ **فى قلوبهم مرض** ﴾ ، ولم يقل مرضت قلوبهم أو قلوبهم مريضة ليوحى بأن المرض قد استقر فى هذه القلوب وتمكن منها .

وقوله : ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ﴾ أى : وحين قالت جماعة من المنافقين كعبد الله بن أبيّ وأصحابه : ياأهل المدينة ليس هذا المقام بمقام لكم فارجعوا إلى منازلكم ليكون ذلك أسلم لكم من القتل .

وقد يكون المعنى : لا مقام لكم فى دين محمد فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك وأسلموا محمدا إلى أعدائه .

الإعراب :

قوله : ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً** ﴾ الظرف متعلق باذكر محذوفا . وجملة يقول : فى محل جر بإضافة الظرف إليها . والذين : عطف على المنافقون . وفى قلوبهم : خبر مقدم ومرض : مبتدأ مؤخر . وجملة ما وعدنا : مقول القول . والله : فاعل . ورسوله : عطف عليه . وإلا : أداة حصر . وغروراً : صفة لمفعول مطلق محذوف أى إلا وعد غرور .

وقوله : ﴿ **وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا** ﴾ عطف على ما تقدم . و﴿ **قالت طائفة** ﴾ فعل وفاعل .

ومنهم : صفة لطائفة . ويا : حرف نداء . وأهل يثرب : منادى مضاف . ولا : نافية للجنس . ومقام : اسمها المبنى على الفتح . ولكم : خبرها ومقام بضم الميم وفتحها أى لا إقامة ولا مكانة .

فارجعوا : الفاء الفصيحة أى إن سمعتم نصحى فارجعوا والقائل هو أوس بن قيظى بكسر الظاء من رؤساء المنافقين . [(١)]

﴿ **ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة** ﴾ .

﴿ **ويستأذن فريق منهم النبى** ﴾ : معطوف على ﴿ **قالت طائفة منهم** ﴾ أى : يستأذنون فى الرجوع إلى منازلهم وهم بنو حارثة وبنو سلمة .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣ / ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

وجملة ﴿ **يقولون** ﴾ بدل مــن قولــه ﴿ **يســتأذن** ﴾ أو حــال أو استئناف جوابا لسؤال مقدر ، والقول الذى قالوه هو قولهم ﴿ **إن بيوتنــا عورة** ﴾ .

والمعنى : أن جماعة منهم طلبوا من النبى ﷺ الرجوع إلى بيوتــهم وتركهم القتال ، وهم بنو حارثة ، معتذرين بمختلف المعاذير كقولــهم : إن بيوتنا مما يلى العدوذليلة الحيطان يُخاف عليــها مــن الســراق ، والحقيقة أنهم كاذبون فيما يقولون ، وهم مضمرون غير ذلك .

ثم بين السبب الحقيقى لهذه المقالــة فقــال : ﴿ **إن يريــدون إلا فرارا** ﴾ أى : ما يريدون بالإستئذان إلا الفرار من القتال والهرب مـــن عسكر رسول الله ﷺ وعدم مساعدة المؤمنين .

ضعف الدين فى قلوب المنافقين ولا ينفع حذر من قدر

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا(١٤)وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا(١٥)قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا(١٦)قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا(١٧) ﴾

معانى المفردات :

قوله : ﴿ **ولو دخلت عليهم** ﴾ المراد بالدخول هنا هو اقتحام جيش العدو أو المغيرين أرض المدينة لغزوها .

﴿ **من أقطارها** ﴾ : من جوانبها ونواحيها ، والمعنى : لو دخلت عليهم بيوتهم أو المدينة من جوانبها جميعا لا من بعضها ، ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة ، واستبيحت ديارهم ، وهتكت حرمهم ومنازلهم .

﴿ **ثم سئلوا الفتنة** ﴾ : الفتنة هنا : إما القتال فى العصبية كما قال الضحاك ، أو الشرك بالله والرجعة إلى الكفر الذى يبطنونه ويظهرون خلافه كما قال الحسن [1] .

﴿ **ما تلبثوا بها** ﴾ : ما أخروا المقاتلة والردة .

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٤ / ٢٦٧ .

﴿ مسئولا ﴾ أى مسئولا عنه ، ومطلوبا صاحبه بالوفاء به ، ومجازى على ترك الوفاء به .

﴿ **يعصمكم من الله** ﴾ : يمنعكم من قدرة الله .

الإعراب :

قوله :﴿ **ولو دُخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها** ﴾ .

الواو عاطفة ، ودخلت : فعل ماضى مبنى للمجهول ، وعليهم : متعلقان به ، ونائب الفاعل مستتر أى المدينة أو بيوتهم ، ومن أقطارها : حال أى : من جميع جوانبها ، وثم : حرف عطف وتراخ ، وسئلوا : فعل ماض مبنى للمجهول ، والواو: نائب فاعل ، والفتنة : مفعول به ثان لسئلوا ، واللام : واقعة فى جواب لو ، وأتوها فعل وفاعل ومفعول به ، والجملة لا محل لها .

﴿ **وما تلبثوا بها إلا يسيرا** ﴾ الواو : عاطفة ، وما : نافية ، وتلبثوا : فعل ماض وفاعل ، وبها : متعلقان بتلبثوا ، وإلا: أداة حصر ، ويسيرا : نعت لمصدر محذوف أو لوقت محذوف فيصح أن تكون مفعولا مطلقا أو ظرف زمان .

قوله : ﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤلا** ﴾ الواو : عاطفة ، واللام : موطئة للقسم ، وقد : حرف تحقيق ، وكانوا : فعل ماض ناقص والواو اسمها ، وجملة عاهدوا : خبرها ، ولفظ الجلالة مفعول به ، ومن قبل : متعلقان بعاهدوا ، وجملة يولون الأدبار : لا محل لها لأنها جواب للقسم ، والأدبار :

مفعول به ثان ليولون والمفعول الأول محـــذوف أى لا يولـــون العـــدو الأدبار ، والواو : عاطفة ، وكان إسمها وخبرها أى مطلوبا .

قوله : ﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتـــل وإذن لا تمتعون إلا قليلا** ﴾ لن : حرف نفى ونصب واستقبال ، وينفعكـــــم : فعل مضارع منصوب بلن والكاف مفعول به ، والفـــرار : فـــاعل ، وإن : حرف شرط جازم يجزم فعلين ، وفررتم : فعل ماض فى محل جـــزم فعـــل الشرط والجواب محذوف دل عليه ما قبله ، ومن الموت : متعلقان بفررتـــم ، وإذن : حرف جواب وجزاء مهمل لوقوعه بعد عاطف كما هو الغـــالب عليه ، ولا : نافية ، وتمتعون : فعل مضارع مبنى للمجـــهول والـــواو نائب فاعل ، وإلا : أداة حصر ، وقليلا: نعت لمصدر محـــذوف أى إلا تمتيعا قليلا أو صفه لظرف محذوف . أى : إلا زمانا قليلا فيصـــح أن تكون مفعولا مطلقا أو ظرف زمان .

قوله :﴿ **قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة** ﴾ من : إسم استفهام مبتدأ ، وذا : إشارة فى محل رفـــع خبر ، والذى : بدل ، وجملة يعصمكـــم مـــن الله : صلـــة ، وإن : شرطية ، وأراد : فعل ماض فى محل جزم فعل الشرط والجـــواب محذوف دل عليه ما قبله أى : فمن ذا الذى يعصمكم ، وســـوءاً : مفعول به ، أو أراد بكم رحمة : عطف على ما تقدم ولابـــد مـــن تقدير محذوف أى أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة .

قوله : ﴿ **ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا** ﴾ الـــواو : إستئنافية أو حالية ، ولا : نافية ، ويجدون : فعل وفاعل ، ولـــهم :

فى محل نصب مفعول ثان ليجدون ، ومن دون الله : حال ، ووليـــا : مفعول به أول ، ولا نصيرا : معطوف على وليا .

المعنى العام :

فى هذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى وهن الدين وضعفه فى قلوب المنافقين ، وأنه معلق بخيط دقيق ينقطع بأدنى هزة وأن الإيمان لا قرار له فى نفوسهم ، ولا أثر له فى قلوبهم . والحاصل : أن طلبهم الإذن فى الرجوع ليس لاختلال بيوتهم بل لنفاقهم وكراهتهم نصرتك . فلو دخلت الأحزاب المدينة من جميع أقطارها ونواحيها واشتد الحرب الحقيقى ثـم سئلوا الردة والحرب لمحمد ﷺ لطاروا إليها ، وما احتبسوا عن فتنـــة الشرك والقتال إلا قليلا . بل هم مسرعون إليها راغبـــون فيـــها لا يقفون عنها إلا لمجرد وقوع السؤال لهم .

ثم بين أن لهم سابقة عهد بالفرار وخوف اللقاء فـــى الحـــرب فقال : ﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبـــار** ﴾ أى : ولقد كان هؤلاء المستأذنون وهم بنو حارثة . وقيل : هم بنو سلمة كانوا قد جبنوا يوم أحد ثم تابوا وعاهدوا يومئذ قبل يوم الخندق أن لا يفروا ، وعن ابن عباس : أنهم قوم عاهدوا بمكة ليلة العقبة أن يمنعوه ﷺ ممـــا يمنعون منه أنفسهم . وقيل : أناس غابوا عن وقعة بدر فحزنوا على ما فاتهم مما أعطى أهل بدر من الكرامة فقالوا : لئن أشهدنا الله تعـــالى قتالا لنقاتلن [١] .

---

(١) روح المعانى للألوسى ٢١ / ١٦٢ .

وهذه الآية موصولة بالآية التى قبلها : ﴿ **إن يريدون إلا فــرارا** ﴾ والمناسبة ظاهرة • أى : هم لا يريدون إلا الفرار ، وكانوا عــاهدوا لا يفرون •

وأكد هذا الخبر بلام القسم وحرف التحقيــق " قــد " وفعــل " كــان " ؛ مع أن الكلام موجه إلى المؤمنيــن ؛ تــنزيلا للســامعين منزلــة مــن يتردد فى أنهم عاهدوا الله علــى الثبــات •

وتولية الأدبار : كناية عن الفرار ، والأدبار : الظهور ، وهى كناية فيـها استهجان وتقبيح بالغ لصورة التولى ، والفار يولى قفــاه وظــهره وعقبــه ودبره ، ولكن الكناية وقعت على الدبر خاصة لمعنى التنفير والتقبيح الــذى يقع فى النفس حين ترسم فى الخيال صورة الرجل الذى يولى دبره لعدوه •

ثم بين الله تعالى ما للعهد مــن حرمــة فقــال : ﴿ **وكــان عــهد الله مسؤلا** ﴾ أى : وعهد الله يُسأل عــن الوفــاء بــه يــوم القيامــة ويجازى عليــه .

والتعبير بالماضى ؛ للإشارة إلى تحقــق الوقــوع •

ثم أمر الله رسوله أن يقول لهم : إن فراركم لا يؤخر آجالكم ولا يطيـل أعماركم فقال : ﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من المــوت أو القتــل** ﴾ أى : قل لهؤلاء المستأذنين الفارين من قتال العدو ومنازلته فى الميدان : لــن ينفعكم الهرب ولا يدفع عنكم ما قدر فى الأزل ؛ فإن المقدر كائن لا محالة ، والأجل إن حضر لن يتأخر بالفرار .

﴿ **وإذا لا تمتعون إلا قليلا** ﴾ أى : وإن نفعكم الفرار بأن دفع عنكـم الموت فمُتِّعتم لم يكن ذلك إلا قليلا ، فإن أيام الحياة وإن طالت قصيرة ، ولله درُ أحمد شوقى إذ يقول :

ثم بين أن النفع والضر بيده سبحانه فلا يجد هؤلاء المنافقون وليا ينفعهم غير الله ، ولا نصيرا يدفع السوء عنهم فقال : ﴿ **قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة** ﴾ أى : قل لهم : لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم شرا من قتل أو بلاء قدره الله عليكم ، أو يؤتيكم خيرا إن لم يكن أراده الله لكم .

والاستفهام فى قوله : ﴿ **من ذا الذى** ﴾ استفهام انكارى يتضمن معنى النفى ، أى : لا أحد يعصمكم من الله .

والعصمة : معناها الوقاية والمنع مما يكرهه المعصوم .

وقدم السوء على الرحمة فى قوله : ﴿ **إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة** ﴾ لأن المقام مقام تهديد .

وجملة : ﴿ **ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا** ﴾ معطوفة على الإنشاء السابق بحسب المعنى ، ووجه المناسبة بينهما أن هذه تنفى الولى الذى يتولى نفعهم والنصير الذى ينصرهم ويدفع الضر عنهم ، والسابقة تنفى أن يكون لهم عاصم يمنعهم من الله .

قال الألوسى [1]: " والمراد : لا ولى فيجدوه ... الخ ، وهو معطوف على ما قبله بحسب المعنى ، فكأنه قيل : لا عاصم لهم ولا ولى ولا نصير " .

---

(١) روح المعانى ٢١ / ١٦٣ .

معايب المنافقين ووصفهم

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا(١٨)أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا(٢٠)﴾ .

﴿المعوقين﴾: يقال : عاقة واعتاقة وعوقة : إذا صرفه عن الوجه الذى يريده . وهم قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبى ﷺ . [١]

﴿هلم إلينا﴾: أى أقبل وأحضر. وأهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث ، وغيرهم من العرب يقولون : هلم للواحد المذكر ، وهلمى للمؤنث ، وهلم للأثنين ، وهلموا للجماعة . **﴿ البأس ﴾** : الحرب والقتال .

---

(١) لسان العرب ١٠ / ٢٨٠ .

لقد وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين بعدة معايب وأوصاف :

الصفة الأولى : تثبيط أنصار النبى ﷺ .

وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين بأنهم الذين يثبطون المسلمين عن رسول الله ﷺ ويصدونهم عنه ، وعن شهود الحرب معه نفاقا منهم وتخذيلا عن الإسلام ، والذين يقولون لأصحابهم وخلطائهم من أهل المدينة : تعالوا إلى ما نحن فيه من الظلال والثمار ، ودعوا محمدا فلا تشهدوا معه مشهداً ، فإنا نخاف عليكم من الهلاك .

أخرج ابن جرير الطبرى [1] بسنده " عن قتادة قال : هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ولو كانوا لحماً لإلتهمهم أبو سفيان وأصحابه دعوا هذا الرجل فإنه هالك .

وعن ابن زيد قال : هذا يوم الأحزاب انصرف رجل من عند رسول الله ﷺ فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ونبيذ فقال له انت ههنا فى الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف ؟ فقال : هلم إلى هذا ، فقد بلغ بك وبصاحبكا والذى يحلف به لا يستقبلها محمداً أبدا ، فقال : كذبت والذى يحلف به . قال ـ وكان أخاه من أبيه وأمه ـ أما والله لأخبرن النبى ﷺ أمرك . قال : وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره . قال : فوجده قد نزل جبريل ـ عليه السلام ـ بخبره ﴿ **قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا** ﴾ أى لا يحضرون القتال إلا رياء " أ . هـ .

---

(١) تفسر الطبرى ٢١ / ٨٩ .

وظاهر صيغة الجمع فى قوله تعالى : ﴿ **والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ...** ﴾ يقتضى أن هذه الآية لم تنزل فى الشقيقين وحدهما ، فقد نزلت فيهما وفى المنافقين القائلين ذلك ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

الإعراب :

﴿ **قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا** ﴾ كلام مستأنف لتصوير حال المنافقين ، وقد : حرف تكثير وأصله للتقليل إذا دخل على الفعل المضارع وهنا تفيد التحقيق ؛ لأنها تتعلق بعلم الله تعالى ، والمعلوم أن " قد " إذا دخلت على الماضى والمضارع وكان الفاعل لفظ الجلالة فهى للتحقيق دائما ، ويعلم الله المعوقين : فعل وفاعل ومفعول به ، ومنكم : حال ، والقائلين : عطف على المعوقين ، ولإخوانهم متعلقان بالقائلين ، وهلم : اسم فعل أمر ، وإلينا متعلقان به .

﴿ **ولا يأتون البأس إلا قليلا** ﴾ الواو : حالية ، ولا : نافية ، ويأتون فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به أى القتال ، وإلا: أداة حصر ، وقليلا: صفة لمصدر محذوف تقديره : إلا اتيانا قليلا أو لزمان محذوف تقديره إلا زمانا قليلا ، فقد كانوا لا يأتون العسكر إلا أن يجدوا بدا فى اتيانه ، فيأتون ليرى الناس وجوههم فإذا غفلوا عنهم عادوا إلى بيوتهم ، ويجوز أن يكون صفة لمفعول مقدر تقديره إلا بأسا قليلا على أنهم يعتذرون فى البأس الكثير ولا يخرجون إلا فى القليل ، واتيان البأس على هذه الأوجه على ظاهره ، ويجوز أن يكون كناية عن القتال ،

والمعنى : ولا يقاتلون إلا قتالا قليلا كقوله تعالى : ﴿ **ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا** ﴾ [1] ، وقلته إما لقصر زمانه وإما لقلقة فائدته .

وأيا ما كان الأمر فجملة ﴿ **ولا يأتون البأس إلا قليلا** ﴾ حال من القائلين ، وقيل : يجوز أن تكون عطف بيان على جملة ﴿ **قد يعلم الله** ﴾ .

الصفة الثانية : البخل .

وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **أشحة عليكم** ﴾ أى : بخلاء عليكم ؛ أى فى النفقة فى سبيل الله . وقيل : بالقتال معكم . وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم . وقيل : أشحة بالغنائم إذا أصابوها .

وهذه الآية مرتبطة بالتى قبلها ارتباطا وثيقا ، فبعد أن ذكر الله تعالى حال المنافقين المثبطين لإخوانهم عن القتال مع رسول الله ﷺ أبان أن هؤلاء المنافقين الذين يشهدون الحرب بتلك النفوس المريضة يضنون على المسلمين بأى جهد يبذلونه معهم ، فذكر هنا بعض معايبهم من البخل والخوف ..

الإعراب :

قوله : ﴿ **أشحة عليكم** ﴾ أشحة : حال من فاعل يأتون أو منصوب على الذم محذوف تقديره أذم .

الصفة الثالثة : الجبن .

قال تعالى : ﴿ **فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت** ﴾

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٠ .

وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين بالجبن وقت القتال ، وكذا شأن الجبان ينظر يمينا وشمالا محددا بصره ، وربما غشى عليه خوفا من القتل .

الإعراب :

قوله : ﴿ **فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك** ﴾ الفاء : استئنافية وإذا : ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ، وجملة جاء الخوف : في محل جر بإضافة الظرف إليها ، وجملة رأيتهم : لامحل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وجملة ينظرون إليك : حال لأن الرؤية هنا بصرية وإليك متعلقان بينظرون .

وقوله :﴿ **تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت** ﴾ جملة تدور أعينهم : حال من فاعل ينظرون وهو الواو ، وكالذى : نعت لمصدر محذوف أى تدور دورانا كدوران عين الذى ، فما بعد الكاف محذوفان وهما دوران وعين ، وجملة يغشى صلة الذى ، ويغشى : فعل مضارع مبنى للمجهول ونائب الفاعل ضمير مصدر مختص بلام العهد أو بصفة محذوفة . والمعنى : ويغشى الغشيان المعهود ، وعليه : جار ومجرور متعلقان بيغشى ، ويجوز أن يكون نائب الفاعل هو الجار والمجرور .

الصفة الرابعة : سلاطة اللسان .

قال تعالى : ﴿ **فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد** ﴾ يقال سلق فلان فلانا بلسانه : إذا أغلظ له فى القول مجاهرا . قال الفراء : أى آذوكم بالكلام فى الأمن بألسنة سليطة .[1]

---

(١) انظر فتح القدير للشوكانى ٤ / ٢٧٠ .

أى فإذا كان المسلمون فى أمن تكلم المنافقون وآذوكم بكلامــــهم وفخروا بمالهم من المقامات المشهودة فى النجدة والشجاعة ، وهــم فى ذلك كاذبون . يقولون نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكســـرتم العدو ويطالبونكم بالقسم الأوفر من الغنيمة .

الإعراب :

قوله : ﴿ **فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد** ﴾ الفاء : عاطفة ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ، وجملة ذهب الخوف : فـــى محل جر بإضافة الظرف إليها ، وجملة سلقوكم : جواب شـــرط غــير جازم لا محل لها ، وبألسنة : جار ومجرور متعلقان بسلقوكم ، وحداد : نعت لألسنة .

ثم بين سبحانه ما دعاهم إلى بسط ألسنتهم فيهم فقال : ﴿ **أشـــحة على الخير** ﴾ : أى هم بخلاء حريصون على الغنـــائم إذا ظفـــر بـــها المؤمنون ، لا يريدون أن يفوتهم شئ مما وصل إلى أيديهم .

والخلاصة : إنهم حين البأس جبناء ، وحين الغنيمة أشحاء .

أفى السلم أعيارٌ جفاء وغلظة وفى الحرب أمثال النساء العواتك

وبعد أن وصفهم بما وصفهم به من دنئ الصفـــات ــ بيــن مــا دعاهم إليها ، وهو قلة ثقتهم بالله لعدم تمكـــن الـــوازع النفســى فــى قلوبهم فقـــال : ﴿ **أولئـك لـم يؤمنـوا فـأحبط الله أعمالــهم** ﴾ أى هؤلاء الذين بســطت أوصافــهم لــم يصدقــوا الله ورســوله ، ولــم يخلصوا له العمـــل ، لأنــهم أهــل نفــاق ، فــأبطل الله أعمالــهم ، وجعلها هباء منثـــورا .

﴿**وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ أى وكان ذلك الإحباط هينا على الله لا يبالى به ، إذ هم قوم فعلوا ما يستوجبه ويستدعيه ، فاقتضت حكمته أن يعاملهم بما يقتضيه عدله ، وتدل عليه حكمته .

الإعراب :

قوله : ﴿ **أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ أشحة : منصوب على الحال أو على الذم كما تقدم ، وعلى الخير : جار ومجرور متعلقان بأشحة أى : على الغنيمة يطلبونها ، وأولئك : مبتدأ ، وجملة لم يؤمنوا : خبر ، فأحبط : معطوفة على لم يؤمنوا ، والله : فاعل ، وأعمالهم : مفعول به ، وكان : الواو حالية أو استئنافية ، وكان واسمها وخبرها ، وعلى الله : حال والإشارة للإحباط .

والمعنى : أن اعمالهم جديرة بالإحباط لا يصرف عنه صارف وليس هو بالأمر الصعب العسير .

ثم بين سبحانه مقدار الجبن والهلع الذى لحق بهم فقال :

﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا** ﴾ أى هم من شدة الهلع والخوف ، لا يزالون يظنون أن الأحزاب من غطفان وقريش لم يرحلوا ، وقد هزمهم الله ورحلوا وتفرقوا فى كل واد .

﴿ **وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم** ﴾ أى : ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم فى المدينة ، بل فى البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم .

وقوله : ﴿ **بادون** ﴾ مأخوذ من قولهم لقد بدوت يـــافلان أى : نزلت البادية ، وسميت البادية بادية لأن كل شئ فيها يكون باديا أى ظاهرا لانكشافها ، وسمى البادى باديا ، لعدم وجود ســكن يســتره ويأويه ، وإنما هو فى حالة ظهور وانكشاف .

وقوله : ﴿ **ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا** ﴾ أى : ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلا لكثرة جبنهم وذلتهم وضعــف يقينهم . وفى هذا تسلية للنبى ﷺ ، وتحقيرا لشأن المنافقين فلا خير فيهم مقيمين وبادين .

الإعراب :

قوله : ﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب** ﴾ الكلام مســتأنف مســوق لتصويــر خوفهم ، ويجوز أن تكون جملة ﴿ **يحسبون** ﴾ حالا مــن ضمــير الرفع فى ﴿ **سلقوكم** ﴾ أى : فعلوا ذلك حاسبين الأحزاب محيطيــن بالمدينة ومعتزين بهم فظهرت خيبتهم فيما قدروا .

ويحسبون : فعل مضارع مرفوع والواو فاعل ، والأحــزاب : مفعول به أول ، وجملة لم يذهبوا : مفعول بــه ثــان ، و الــواو : عاطفة ، وإن : شرطية ، ويأت : فعل شرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة ، والأحزاب : فاعل ، ويودوا : جواب الشــرط مجزوم وعلامة جزمه حذف النون ، ولو : مصدرية ، ولو وما بعدها فى تأويل مصدر مفعول يودوا . أى يتمنون لخوفهم أنهم خارجين إلــى

البدو ، و " أن " وما فى حيزها فى تأويل مصدر فاعل لفعل محــــذوف تقديره : يودوا لو ثبت أنهم بادون ، و " أن " وإســــمها وبـــادون : خبرها ، وفى الأعراب : جار ومجرور متعلقان ببادون أو بمحــذوف حال أى : كائنين ومستقرين فيكم .

قوله ﴿ **يسألون عن أنبائكم ولــو كــانوا فيكــم مــا قــاتلوكم إلا قليلا** ﴾ جملة يســألون يجــوز أن تكــون مســتأنفة أو تكــون حالا من ضمير يحسبون ، وعن أنبــائكم : متعلقــان بيســألون ، والواو : حالية ، ولـــو : شــرطية ، وكــان واســمها ، وفيكــم : خبرها ، وما: نافية ، وقاتلوا : فعل وفــاعل ، وجملــة مــا قــاتلوا : لا محل لها لأنها جواب شــرط غــير جــازم ، وإلا : أداة حصــر ، وقليلا : نعت لمصدر محــــذوف أى إلا قتــالا قليــلا ، أو نعــت لظرف أى إلا وقتا قليــلا .

التأسى برسول الله ﷺ

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَـانَ يَرْجُـو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(٢١) ﴾

علاقة هذه الآية بما قبلها :

بعد توبيخ المنافقين والذين فى قلوبهم مرض وبيان خسـتهم وعظيم جبنهم ، عاتب المتخلفين عن القتال مع الرسول ﷺ وأبان لهم أنه كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة حيث بذل نفسه للقتال وخرج إلى الخندق لنصرة دين الله .

وقال القرطبى : " هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مـع رسول الله ﷺ أى لقد كان لكم قدوة حسنة فـى رسـول الله ﷺ حيث بذل نفسه لنصرة دين الله فى خروجه إلى الخندق وأيضـا فقد شج وجهه وكسرت رباعيته وجاع بطنه ولم يكـن إلا صـابراً محتسباً وشاكراً راضياً " [١]

وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً فهى عامة فى كـل أفعالـه ، ومثلها ﴿ **ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ [٢] ، **وقوله تعالى** : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾ [٣] .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٠٢ .

(٢) سورة الحشر الآية ٧ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٣١ .

قال القرطبى [1] : " واختلف فيمن أريد بهذا الخطــاب علــى قولين :

أحدهما : أنه المنافقون عطفاً على ما تقدم من خطابهم .

والثانى : أنه المؤمنون لقوله تعالى : ﴿ **لمن كــان يرجــوا الله واليوم الآخر** ﴾ .

والأول هو الأولى لأن الآية عتاب وتوبيخ للمتخلفيـــن عــن القتال مع رسول الله ﷺ ، وهو اختيار الطبرى [2] .

وقوله : ﴿ **لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر** ﴾ أى : يرجـوا رحمة الله أو رضا الله وثواب اليوم الآخـــر ، ففــى الكلاميــن مضافان مقدران ، وعن مقاتل : " أى يخشى الله ويخشى البعــث الذى فيه جزاء الأعمال " [3] فقد وضع اليوم الآخر موضع البعــث لأنه يكون فيه ، وجعل الرجاء بمعنى الخوف .

وقوله : ﴿ **واذكر الله كثيرا** ﴾ فيه إشارة إلى ما يعين على التأســى والإقتداء برسول الله ﷺ ، والمراد بذكر الله : استحضار جلالــه ومــلء القلب بهيبته وسلطانه حتى لا يبقى فى القلب مكان لغيره .

وقد قرن سبحانه بالرجاء كثرة الذكر لأن المثابرة علـــى كــثرة ذكره عز وجل تؤدى إلى ملازمة الطاعة وبـــها يتحقــق الاقتــداء والتأسى برسول الله ﷺ .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٠٢ .

(٢) تفسير الطبرى ٢١ / ٩١ .

(٣) زاد المسير لابن الجوزى ٣٦٨/٦ .

الإعراب :

قوله : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ كلام مستأنف مسوق لعتاب المتخلفين عن القتال . واللام : جواب للقسم المحذوف ، وقد : حرف تحقيق ، وكان : فعل ماض ناقص ، ولكم خبرها المقدم ، وفى رسول الله : حال لأنه كان فى الأصل صفة لأسوة ، وأسوة : اسم كان المؤخر ، وحسنة : صفة لأسوة أى قدوة حسنة بضم الهمزة وقد تكسر . والجمع أسً وإسً .

قوله :﴿ **لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾

لمن : الجار والمجرور بدل من لكم وأعيدت اللام مع البدل للفصل أو يكون بدل اشتمال ، وجملة كان صلة (مَن) ، واسم كان مستتر تقديره هو ، وجملة يرجو الله ، خبرها ، واليوم الآخر : معطوف على لفظ الجلالة ، وذكر : فعل ماض معطوف على كان ، ولفظ الجلالة : مفعول به ، وكثيراً : مفعول مطلق .

حال المؤمنون عند لقاء الأحزاب

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الاَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا(٢٢)مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاَ(٢٣)لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(٢٤)﴾ .

علاقة هذه الآية بما قبلها :

لما ذكر سبحانه حال المنافقين الذين نقضوا العهد ذكر حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب ، بأنهم استمروا على العهد والميثاق فقال ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما** ﴾ أى ولما أبصر المؤمنون الصادقون المخلصون لله فى القول والعمل ــ الأحزاب التى أدهشت رؤيتهم العقول ، واضطربت لها الأفئدة ــ قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار الذى يعقبه النصر فى نحو قوله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ (١) وقوله : ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا**

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٤ .

يفتنون ﴾[1] وقوله ﷺ : " سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم ، والعاقبة لكم عليهم " وقوله: "إنهم سائرون إليكم تسعا أو عشراً " أى فى أخر تسع ليال أو عشر من حين الإخبار [2] .

وصدق الله ورسوله فى النصرة و الثواب ، كما صدق الله ورسوله فى البلاء والإختبار ، وما زادهم ذلك إلا صبرا على البلاء ، وتسليما للقضاء ، وتصديقا بتحقيق ما كان الله ورسوله قد وعدهم .

ووجه إظهار لفظ الجلالة ، والرسول فى قوله **﴿ صدق الله ورسوله ﴾ بعد قوله ﴿ ما وعد الله ورسوله ﴾** هو قصد التعظيم ، ولو أنه أعادهما مضمرين لجمع بين اسم الله تعالى واسم رسوله فى لفظة واحدة ، فقال وصدقا ، وقد كره النبى ﷺ ذلك حين رد على أحد الخطباء الذين تكلموا بين يديه إذ قال : " ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى " فقال النبى ﷺ له : بئس خطيب القوم أنت قل : ومن يعص الله ورسوله ، قصدا إلى تعظيم الله .

وقد استشكل بعض العلماء قوله عليه الصلاة والسلام " حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما " فقالوا : إنه جمع بينهما فى ضمير واحد .

وأجيب على هذا الإستشكال بأن النبى ﷺ أعرف بقدر الله منا فليس لنا أن نقول كما يقول .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٢ .

(٢) تفسير المراغى ٢١ / ١٤٦ .

الإعراب :

قوله : ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنـــا الله ورسوله** ﴾ لما : ظرفيه حينيه متعلقة بقالوا أو رابطــة متضمنــة معنى الشرط ، ورأى المؤمنون الأحزاب : فعـــل مــاض وفــاعل ومفعول به ، وجملة قالوا : لا محل لها ، وهذا : مبتدأ ، وما : خـبر والجملة مقول القول ، وجملة وعدنا الله ورسوله : صلة ما .

قوله : ﴿ **وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما** ﴾

الواو : عاطفة ، وصدق الله : فعل وفاعل ، وفيــه وضــع الظــاهر موضع المضمر لتعظيمه والتنويه بوعدهما الكائن ، وما زادهم : معطوفة على صدق ، وإلا : أداة حصر ، وإيماناً : مفعول بـــه ثــان لزادهــم ، وتسليماً : معطوفة على إيماناً ، وفاعل زادهم ضمير الوعد أو الصدق .

ثم وصف سبحانه بعض الكملة من المؤمنين الذين صدقوا عنــد اللقاء واحتملوا البأساء والضراء فقال : ﴿ **مــن المؤمنيــن رجــال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم مــن ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ .

قوله ﴿ **قضى نحبه** ﴾ النحب : هو النذر المحكوم بوجوبـــه ، يقال : قضى فلان نحبه ، أى : وفَّى بنذره [(١)] .

قال الشوكانى : " كانوا يوم بدر نذروا إن لقوا العدو أن يقاتلوا حتــى يقتلوا أو يفتح الله لهم فقتلوا ، فقيل فلان قضى نحبه : أى قتل [(٢)]

---

(١) المفردات للراغب ص ٥٠٥ .

(٢) فتح القدير للشوكانى ٤ / ٢٧١ ــ ٢٧٢ .

والمعنى : أن من المؤمنين بالله المصدقين برسوله ، رجال أوفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر فى اللأواء وحين البأساء ، فاستُشْهِد بعضٌ يوم بدر ، وبعضٌ يوم أحد ، وبعضٌ فى غير هذه المواطن ، ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه كما قضى مَن مضى منهم على الوفاء لله بعهده وما غيروه وما بدلوه [1] .

سبب نزول هذه الآية :

عن أنس بن مالك قال : " غاب عمى أنس بن النضر عن بدر ، فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله ﷺ فيما بعد لَيَرَيَنَ الله ما أصنع ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد من العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ قال : واها [2] لريح الجنة أجدها دون أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوُجد فى جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالت عمتى الرُّبيِّعُ بنت النضر فما عرفت أخى إلا ببنانة فنزلت الآية ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ .. . **الآية** [3]

(١) تفسير المراغى ٢١ / ١٤٧ .

(٢) واها : كلمة تعجب وتلهف من طيب الشئ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الإمارة باب ثبوت الجنة للشهيد ١٣/٤٧ ، ٤٨ شرح النووى .

وأخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير ٥ / ٣٤٨ ــ ٣٤٩ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقد ثبتت أخبار تفيد أن من قضى نحبه هو الصحابى الجليل طلحة بن عبيد الله ، وكان حيا بعد نزول الآية .

فقد أخرج الطبرى [1] بسنده " عن طلحة أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ قال وكانوا لا يجرؤن على مسألته فقالوا للأعرابى سله من قضى نحبه من هو ؟ فسأله فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم دخلت من باب المسجد وعلىّ ثياب خضر فلما رآنى رسول الله ﷺ قال : أين السائل عمن قضى نحبه قال الأعرابى أنا يا رسول الله . قال : هذا ممن قضى نحبه " .

وأخرج ابن منده وابن عساكر عن أسماء بنت أبى بكر قالت : دخل طلحة بن عبيد الله على النبى ﷺ فقال : " ياطلحة ، أنت ممن قضى نحبه " [2] .

وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنهم قالوا : حدثنا عن طلحة قال : ذاك امرؤ نزل فيه آية من كتاب الله ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر** ﴾ طلحة ممن قضى نحبه لا حساب عليه فيما يستقبل [3] .

وأخرج الترمذى بسنده عن الزبير بن العوام قال : " كان على رسول الله ﷺ يوم أحد درعان فنهض إلى صخرة ، فلم يستطع ، فأقعد تحته طلحة ، فصعد النبى ﷺ حتى استوى على الصخرة فقال

---

(١) تفسير الطبرى ٢١ / ٩٣ .

(٢) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٣٦٦/٥ .

(٣) المرجع السابق ٣٦٧/٥ .

الصخرة فقال : سمعت النبى ﷺ يقول : أوجب طلحة [1] ، أى : استحق الجنة استحقاقا ٠

وقال الزمخشرى [2] :" نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زين بن عمرو بن نفيل وحمزه ومصعب بن عمير وغيرهم ــ رضى الله عنهم ــ ﴿ **فمنهم من قضى نحبه** ﴾ يعنى حمزة ومصعباً ﴿ **ومنهم من ينتظر** ﴾ يعنى عثمان وطلحة " .

وقوله : ﴿ **وما بدلوا تبديلا** ﴾ أى : وما بدلوا عهده وما غيروه ، بل ثبتوا بما عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون ٠

وفى الآية تعريض بمن بدل من المنافقين ، حيث ولوا الأدبار ، وكانوا عاهدوا لا يولون الأدبار ، فكأنه قيل : وما بدلوا تبديلا كما بدل المنافقون ٠

الإعراب :

قوله : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان حال الصالحين من الصحابة الذين نذروا أنهم إذا أدركوا حرباً مع رسول الله ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا . و﴿**من المؤمنين** ﴾: خبر مقدم ، ورجال : مبتدأ مؤخر ، وجملة

---

(١) فى سننه ٠ كتاب المناقب باب مناقب طلحة بن عبيد الله ٥/٦٠١ ــ ٦٠٢

(٢) فى الكشاف ٣ / ٢٣٢ .

صدقوا : صفة لرجال ، وما : اسم موصول مفعول به ، عــاهدوا الله عليه : صلة الموصول ، وعليه : جار ومجرور متعلقان بعاهدوا .

قوله : ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومــا بدلــوا تبديلا** ﴾ الفاء : تفريعية ، ومنهم : خبر مقدم ، ومن : مبتدأ مؤخر ، وجملة قضى نحبه : صلة من ، ومنهم من ينتظر : عطف على مــا سبقه ، والواو : عاطفة ، وما : نافيـــة ، وبدلــوا : فعــل وفــاعل والمفعول به محذوف أي العهد وتبديلا : مفعول مطلق .

ثم بين سبحانه العلة في هــذا الإبتــلاء فقــال ﴿ **ليجــزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليــهم** ﴾ أي : أنه سبحانه إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيــث من الطيب ، ويظهر أمر كل منهما جلياً واضحاً ، ثم يثبــت أهــل الصدق منهم بصدقهم بما عاهدوا الله عليه ، ووفائهم له به ، ويعــذب المنافقين الناقضين لعهده ، المخالفين لأوامره .

وقد تساءل ابن جرير الطبرى [١] فقال : " إن قال قائل ما وجــه الشرط في قوله ويعذب المنافقين بقوله ﴿ **إن شاء** ﴾ والمنافق كــافر وهل يجوز أن لا يشاء تعذيب المنافق فيقال ويعذبه إن شاء ؟ قيــل : إن معنى ذلك على غير الوجه الذى توهمته وإنمــا معنــى ذلــك : ويعذب المنافقين بأن لا يوفقهم للتوبة من نفاقهم حتى يموتــوا علــى كفرهم إن شاء ، فيستوجبوا بذلك العذاب . فالاستثناء إنما هــو مــن التوفيق لا من العذاب إن ماتوا على نفاقهم . وقال : وقد بين ما قلنا فــى

---

(١) تفسير الطبرى ٢١ / ٩٤ .

ذلك قوله ﴿ **أو يتوب عليهم** ﴾ فمعنى الكلام إذاً ويعذب المنافقين إذ لـــم يهدهم للتوبة فيوفقهم لها أو يتوب عليهم فلا يعذبهم " أ . هـ .

ونجد من براعة المناسبة تذييل الآية بقوله تعـــالى : ﴿ إن الله كان غفورا رحيما ﴾ أى إنه تعالى من شأنه الســـتر علـــى ذنـــوب التائبين والرحمة بهم ، فلا يعاقبهم بعد التوبة ، وفى هذا حث عليـــها فى كل حين ، وبيان نفعها للتائبين .

الإعراب :

قوله : ﴿ **ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنـــافقين إن شاء** ﴾ اللام : لام التعليل ، ويجزى : فعل مضارع منصوب بـــأن مضمرة بعد اللام .

وقوله : ﴿ **ليجزى .. .. ويعـــذب** ﴾ إمـــا أن يكـــون تعليـــلاً لمحذوف تقديره : إنما يمتحن الله عباده بالخوف والزلزال ويبتليـــهم بالشدائد والمحن ليميز الخبيث من الطيب فيثيب الصادقين ويعـــذب المنافقين كقوله تعالى: ﴿ **ولنبلوكم حتى نعلم المجـــاهدين منكـــم والصابرين** ﴾(١) .

وإما أن يكون تعليلاً للمذكور وهو قوله : ﴿**من المؤمنيـــن رجـــال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾.

أى : صدقوا .. ليجزون ، أو ليجزيهم الله . فأظهر فى موضـــع الإضمار : تبركاً بذكر اسمه عز وجل ، ولتسجيل اتصافهم بـــالصدق ومدحهم به .

---

(١) سورة محمد الآية ٣١ .

الله : فاعل ، والصادقين : مفعـــول بـــه ، وبصدقـــهم : جـــار ومجرور متعلقان بيجزى ، ويعذب المنافقين : عطف على ليجـــزى الله الصادقين ، وإن : شرطية ، وشاء فعل ماض وهو فعل الشرط ، والجواب محذوف أى : إن شاء عدم توبتهم عذبهم .

قوله : ﴿ **أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيمـــا** ﴾ أو : حرف عطف ، ويتوب : عطف على ما قبلـــه ، وعليـــهم : جـــار ومجرور متعلقان بيتوب ، وجملة إن الله .. تعليل لما تقـــدم ، وإن ، واسمها وجملة كان : خبرها ، واسم كان ضمير مستتر تقديره هـــو ، وغفورا : خبرها الأول ، ورحيما : خبرها الثانى .

اجلاء الأحزاب عن المدينة

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

علاقة هذه الآية بما قبلها :

هذه الآية تتمة للنعمة المشار إليها إجمالا فى قوله تعالى : ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها** ﴾ ، فالواو فى قوله : ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم** ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحا ..** ﴾ أى : فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ورددنا بذلك الذين كفروا .

معانى المفردات :

﴿ **ورد الله الذين كفروا** ﴾ : الأحزاب .

﴿ **بغيظهم** ﴾ : حال من ﴿ **الذين كفروا** ﴾ ويجوز أن تكون الباء للملابسة أى ملتبسين بغيظهم وهو أشد الغضب ، ويجوز أن تكون الباء سببية أى : بسبب غيظهم ، والوجه الأول أظهر ، وعليه جمهور المفسرين ، لأن فيه تصوير وتجسيم للمعنى ، حيث جعل الغيظ شيئا محسوسا تراه العيون وتلمسه الأيدى ، فهو ملابس للقوم ملابسة حسية وهو معهم ، وفى صحبتهم ومردود معهم .

﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ : أى وقاهم سبحانه القتال بالريح والملائكة .

قال ابن كثير : " أى لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتـــى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعـــز جنده ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : " لا إلـــه إلا الله وحـــده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده فلا شئ بعده " أخرجه الخارى ومسلم من حديث أبى هريرة ــ رضـــى الله عنه .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : " اللـــهم مـــنزل الكتـــاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم " .

وروى محمد بن اسحاق أنه لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ : " لن تغزوكم قريش بعد عامكم هـــذا ولكنكـــم تغزونهم " وقد تحقق هذا ، فلم تغزهم قريش بعد ذلـــك ، بـــل كـــان رسول الله ﷺ يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله تعالى مكـــة ، وهـــذا حديث صحيح " [1] .

وناسب ختم الآية بقوله : ﴿ **وكان الله قويا عزيزا** ﴾ أى : وكان الله قويا حيث رد الذين كفروا بغيظهم ، فهو مظهر للقوة والقهر . وعزيـــزا حيث كفى المؤمنين القتال ، فهو مظهر للمنع والحفظ .

ونلاحظ ترتيب الوصفين ﴿ **قويـــا** ﴾ و ﴿ **عزيـــزا** ﴾ مناســـب لترتيب الجملتين ﴿ **ورد الله الذين كفروا** ﴾ وقولـــه ﴿ **وكفـــى الله المؤمنين القتال** ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٥٩/٣ .

الإعراب :

قوله تعالى : ﴿ **وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خـــيرا** ﴾

الواو : عاطفة ، وردّ الله الذين كفروا : عطف على ما تقدم وهو فعل ماض وفاعل ومفعول به ، وجملة كفروا : صلة الموصـــول وهم الأحزاب ، وبغيظهم : حال أى مغيظين ، وجملة لم ينـــالوا خيرا : حال ثانية من ﴿ **الذين كفروا** ﴾ كقوله ﴿ **بغيظـــهم** ﴾ أو حال من الضمير فى قوله ﴿ **بغيظهم** ﴾ وتكـــون حينئـــذ حـــالا متداخلة ، ويكون المعنى : غير ظافرين بخير أصلا ، ويجـــوز أن تكون جملة ﴿ **لم ينالوا خيرا** ﴾ استئنافا بيانيا لبيان موجـــب غيظهم وكأنه قال : ورد الله الذين كفروا بغيظهم لأنهم لم ينـــالوا خيرا ، فهو جواب عن سؤال مقدر يستفسر عن سبب الغيـــظ أى : لماذا كانوا مغيظين ؟

قوله : ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا** ﴾

الواو : عاطفة ، وكفى الله المؤمنين : فعل وفاعل ومفعول بـــه أول ، والقتال : مفعول به ثان ؛ لأن كفى هنا بمعنى وفى وهـــى عندئذ متعدية لأثنين ، وكان واسمها وخبرها .

غزوة بنى قريظة

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا(٢٦)وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا(٢٧) ﴾ .

علاقة الآيتين بما قبلهما :

هاتان الآيتان تتحدثان عن غزوة بنى قريظة ، فبعد أن قص الله تعالى غزوة الأحزاب ، وما انتهت إليه من هزيمة الأحزاب ونصر المسلمين ، ذكر هنا خبر بنى قريظة الذين عاونوا الأحزاب .

قصة الغزوة :

وقعت غزوة بنى قريظة فى آخر ذى القعدة وأول ذى الحجة من السنة الخامسة للهجرة ، وقصتها كما روى ابن اسحاق قال : لما انصرف رسول الله ﷺ عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون أتى جبريل ــ عليه السلام ــ رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التى انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا سلاحهم أتى على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس فقال ما هذا يا جبريل قال : من متابعة قريش فجعل رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن سرجه . فقال يارسول الله إن الملائكة لم تضع السلاح إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة ، وأنا عامد إليهم فإن الله داقهم دق البيض على الصفا وإنهم لكم طعمة . فأذن فى الناس أن من كان

سامعاً مطيعاً فلا يصلى العصر إلا فى بنى قريظة فما صلى كثير من الناس إلا بعد العشاء الآخرة لقول رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم رسول الله ﷺ تنزلون على حكمى ؟ فأبوا . فقال على حكم سعد ابن معاذ ؟ فرضوا به . فقال سعد : حكمت فيهم أن تقتل مقاتلهم وتسبى زراريهم ونساؤهم فكبر النبى ﷺ وقال : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة [1] ثم استنزلهم وخندق فى سوق المدينة خندقا ، وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة . وقيل كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير [2].

قوله : ﴿ **وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم** ﴾ أى : بنى قريظة الذين ظاهروا الأحزاب وعاونوهم ، ويراد بالنزول هنا : الهبوط من الحصون التى تحصنوا بها ، أو من الأماكن التى اعتصموا واحتموا بها والتى كالجبال .

ومعنى : ﴿ **من صياصيهم** ﴾ أى : من حصونهم . قال الألوسى : الصياصى : جمع صيصية ، وهى كل ما يمتنع به ، ويقال لقرن الثور والظباء ، ولشوكة الديك التى فى رجله ، وسميت الحصون صياصى لأنه يمتنع بها كما يمتنع بالصياصى [3] .

---

(١) الرقيع سماء الدنيا وكذلك سائر السموات .

(٢) راجع تفسير الطبرى ٢١/٩٥ ــ ٩٦ ، والكشاف ٣ / ٢٣٣ .

(٣) روح المعانى للألوسى ٢١ / ١٧٥ .

وفى هذا إشارة إلى أن حصونهم كانت منيعة وقوية يصعب اقتحامها ولكن دون جدوى فقد زلزلهم الله تعالى ٠ وفى ذلك توكيد للنعم التى يذكر الله المؤمنين بها ٠

وقوله : ﴿ **وقذف فى قلوبهم الرعب** ﴾ معناه : ألقى فى قلوبهم الخوف الشديد ، وهو تصوير للفزع والهلع والاضطراب الذى علاهم عندما داهمهم جيش المسلمين ٠

وقوله : ﴿ **فريقا تقتلون وتأسرون فريقا** ﴾ فالقتل كان للرجال المحاربين الذين نقضوا العهد وغدروا بالرسول والصحابة ، وكانوا مصدر الأذى والعنت ، لذا قدمهم وكان مصيرهم القتل ٠ أما الفريق الذى أسر فهم النساء والذرية ٠

قوله تعالى : ﴿ **وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم** ﴾ .

المراد بالأرض العقار والنخيل ، وبالديار المنازل والحصون ، وبالأموال الحلى والأثاث والمواشى والسلاح والدراهم والدنانير .

﴿ **وأرضاً لم تطئوها** ﴾ اختلف المفسرون فى تعيين هذه الأرض المذكورة فقال يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل : إنها خيبر ولم يكونوا إذ ذاك قد نالوها ، فوعدهم الله بها . وقال قتاده : كنا نتحدث أنها مكة ، وقال الحسن : فارس والروم ، وقال عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة [(١)] .

وفى تزييل الآية بقوله : ﴿ **وكان الله على كل شئ قديرا** ﴾ إيماء إلى عظيم قدرة الله تعالى ٠

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٤/ ٢٧٤ ٠

قال القرطبى [1] **فيه وجهان :**

أحدهما : على أن ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير ؛ قاله محمد ابن اسحاق .

الثانى : على ما أراد أن يفتحه من الحصون والقرى قدير ، قاله النقاش .

وقيل : ﴿ **وكان الله على كل شئ** ﴾ مما وعدكموه ﴿ **قديرا** ﴾ لا ترد قدرته ولا يجوز عليه العجز تعالى " أ . هـ

والمعنى : وكان الله على كل شئ قديرا على أن يورثكم ذلك ، وعلى أن ينصركم عليهم ، وعلى انجاز ما وعد به من الفتح للمسلمين ، إذ لا يتعذر عليه شئ أراده ، ولا يمتنع عليه فعل شئ شاءه .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ /١٠٦ .

تخيير النبى ﷺ لنسائه

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُـــرِدْنَ الْحَيَـــاةَ الدُّنْيَـــا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً(٢٨)وَإِنْ كُنْتُـــنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُـنَّ أَجْرًا عَظِيمًا(٢٩)يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَـــةٍ مُبَيِّنَـةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّـــهِ يَسِـيرًا(٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا(٣١) ﴾

معانى المفردات :

زينة الدنيا : زخرفها ونعيمها ونضارتـــها . فتعـــالين : أى أقبلن باختياركن واخترن أحد الأمرين . أمتعكن : أعطكن المتعـــة ، وهى قميص وغطاء للرأس ومِلْحَفة ــ مُلاءة ــ بحسب الســـعة والإقتار . وأسرحكن : أى أطلقكن . سراحاً جميلاً : أى طلاقا مـــن غير ضرار ولا مخاصمة ولا مشاجرة . بفاحشة : أى فعلة قبيحـــة كنشوز ، وسوء الخلق ، واختيار الحياة الدنيـــا وزينتـــها علـــى الله ورسوله . مبينة : أى ظاهرة القبح . ضعفين : أى ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه . يسيراً : أى هيناً لا يمنعه عنه كونهن نســـاء النبى ، بل هذا سبب له . يقنت : أى يخشع ويخضع . وأعتدنـــا : هيأنا وأعددنا .

علاقة هذه الآيات بما قبلها :

بعد أن نصر الله نبيه ﷺ فرد عنه الأحزاب ، وفتح عليه قريظة والنضير ، ظن أزواجه ـ رضى الله عنهن ـ أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وقلن يا رسول الله : بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل ، والإماء والخَول ـ الخدم والحشم ـ ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه الشريف بمطالبهن من توسعة الحال ومعاملتهن معاملة نساء الملوك وأبناء الدنيا من التمتع بزخارفها من المأكل والمشرب ونحو ذلك فأمره الله تعالى أن يتلو عليهم ما نزل فى شأنهن .

سبب نزول الآيتين :

وفى سبب نزول الآيتين الأوليين أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله قال : " دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال : فأُذن لأبى بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأُذن له فوجد النبى ﷺ جالساً حوله نساؤه واجما ساكتا قال : فقال لأقولن شيئاً لأضحك النبى ﷺ فقال يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت [1] عنقها فضحك رسول الله ﷺ وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول : تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده فقلن : والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً

---

(١) الوجأ : اللكز . ووجأت عنقها ، أى ضربته . لسان العرب ١/١٩٠ .

وعشرين ثم نزلت عليه هذه الآية ﴿ **يا أيها النبى قل لأزواجـــك** ﴾ حتى بلغ ﴿ **للمحسنات منكن أجراً عظيماً** ﴾ قال : فبـــدأ بعائشـــة فقال : يا عائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك • قالت : وما هو يا رسول الله فتلا عليــها الآية قالت : أفيك يا رسول أستشير أبوى بل أختـــار الله ورســوله والدار الآخرة وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلـــت • قال لا تسألنى امرأة منهن إلاَّ أخبرتها إن الله لم يبعثنى مُعنتاَ ولا متعنتاً ولكن بعثنى معلماً ميسراً " [1] •

وكان تحته ﷺ يومئذ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة و حفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة ــ رضى الله عنهن ــ ، وأربــع من غير القريشيات : زينب بنت جحش الأسدية ، وميمونـــة بنــت الحارث الهلالية ، وصفية بنت حيى بن أخطب النضيريه ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية .

أما السيدة خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة الهلالية فقــد ماتتا قبل نزول هذه الآية •

وبعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله ــ أتبع ذلك بعظتهن وتهديدهن إذا هن فعلن ما يسوء النبى ﷺ وأوعدهن بمضاعفة العذاب فقال :

﴿ **يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾ أى من يعص منكــن الرســول ﷺ ويطلب ما يشق عليه ويضق به زرعا ويغتم لأجله ــ يضاعف لـــها

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه • كتاب الطلاق • باب : بيان أن تخييره امرأتــه لا يكون طلاقا إلا بالنية ١٠/٨٠ ــ ٨١ شرح النووى •

العذاب يوم القيامة ضعفين أى تعذب ضعفى عذاب غيرها ، لأن قبح المعصية منهن أشد ، ومن ثم كان ذم العقلاء للعالم العاص أشد منه للجاهل العاصى ، وكان ذلك سهلاً يسيراً على الله الذى لا يحابى أحداً لأجل أحد ، إذ كونهن نساء رسوله ليس بمغن عنهن شيئاً ، بل هو سبب لمضاعفة العذاب .

روى أن رجلا قال لزين العابدين ﷺ : إنكم أهل بيت مغفور لكم فغضب وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبى ﷺ من أن نكون كما قلت ، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئنا ضعفين من العذاب ، وقرأ هذه الآية والتى بعدها . [١]

والفاحشة التى يضاعف العذاب لهن من أجلها من المحال أن تقع فى بيت النبوة ، فالكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير ، مبالغة فى التنفير من هذه الفاحشة ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [٢]

ولما وردت الفاحشة هنا فى سياق الحديث إلى نساء النبى ﷺ حاول بعض المفسرين أن يذكر لها تفسيرا يخفف من معناها الغليظ الذى طبعت النفوس على استهجانه واتقباحه وذلك بمنع أن يكون المراد بها الزنا ٠

فقال أبو حيان : " ولا يتوهم أنها الزنا ، لعصمة رسول الله ﷺ ، من ذلك ، ولأنه وصفها بالتبيين والزنا مما يتستر به ، وينبغى أن تحمل الفاحشة على عقوق الزوج وفساد عشرته ٠ ولما كان مكانهن

---

(١) تفسير المراغى ٢١ / ١٥٤ .

(٢) سورة الزمر الآ]ة ٦٥ ٠

مهبط الوحى من الأوامر والنواهى ، لزمهن بسبب ذلك ، وكونهن تحت الرسول أكثر مما يلزم غيرهن ، فضوعف لهن الأجر والعذاب " [1] .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : " المراد بالفاحشة : النشوز وسوء الخلق " [2] وعلى كل تقدير فهو شرط والشرط لا يقتضى الوقوع .

وبعد أن ذكر زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة ، أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال ــ مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم فى الدنيا و الآخرة قال تعالى : ﴿ **ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما** ﴾

الإعراب :

قوله : ﴿ **يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها** ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير موقف الإسلام من أزواج النبى ﷺ والمرأة . إن : شرطية ، كنتن : فعل ماض ناقص فى محل جزم فعل الشرط ، والتاء : اسمها . والنون علامة التأنيث ، وجملة تردن : خبر كان ، والنون فاعل ، والحياة الدنيا : مفعول به وزينتها : عطف على الحياة .

---

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٤٧٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٦٣/٣ .

﴿ فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلاً ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط لأنه أتى جملة طلبية ، وتعالين : فعل أمر مبنى على السكون ، والنون فاعل ، وأمتعكن : مجزوم لأنه جواب الطلب ، وأسرحكن : عطف على أمتعكن ، سراحا : مفعول مطلق ، وجميلا : صفة .

﴿ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما ﴾ .

الواو : عاطفة ، إن : شرطية ، كنتن : فعل ماض ناقص فى محل جزم فعل الشرط ، التاء : اسمها ، وجملة تردن : خبرها ، والنون : فاعل تردن ، الله : مفعول به ، ورسوله : عطف عليه ، والدار الآخرة : عطف أيضا ، والفاء : رابطة ، وإن واسمها : وجملة أعد للمحسنات : خبرها ، ومنكن : حال ، وأجراً : مفعول به ، وعظيما : صفة .

﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ يا : حرف نداء ، ونساء النبى : منادى مضاف ، من : اسم شرط جازم فى محل رفع مبتدأ ، يأت : فعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة ، منكن : حال ، بفاحشة : جار ومجرور متعلقان بيأت ، ويضاعف : جواب الشرط مجزوم وعلامة جزمه السكون ، ولهما : متعلقان بيضاعف ، والعذاب : نائب فاعل ليضاعف ، وضعفين : مفعول مطلق .

﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ الواو : حالية أو استئنافية ، وكان واسمها ، وعلى الله : متعلقان بيسيرا ، ويسيرا : خبر كان .

﴿ **ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا يؤتها أجرهـــا مرتين** ﴾ عطف على ما تقدم ، وأجرها : مفعول به ثان لنؤتـــها ، ومرتين : منصوبة على المفعولين المطلق أو الظرفية الزمانية .

﴿ **وأعتدنا لها رزقا كريما** ﴾ الواو عاطفة ، أعتدنا : فعـــل مـــاض وفاعل ، ولها : متعلقان بأعتدنا ، ورزقا : مفعول به ، كريمـــا : صفة .

آداب أمر الله تعالى بها نساء النبى ﷺ

﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا(٣٢)وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا(٣٣)وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا(٣٤) ﴾

فى هذه الآيات الكريمة آداب وتعاليم أمر الله تعالى بها نساء النبى ﷺ وهى :

١ـ **نهى أمهات المؤمنين عن ترقيق الكلام** إذا خاطبن الرجال حتى لا يطمع من فى قلبه مرض كفجور وشك ونفاق وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض** ﴾ فإذا اضطررن أن يكلمن الرجال فبدون نعومة أو نظرات أو كسرات كشأن المريبات والمومسات . وأن يكون كلامهن بعيداً عن الريبة .

٢ ـ **أمر أمهات المؤمنين بملازمة البيوت** وذلك فى قوله تعالى ﴿ **وقرن فى بيوتكن** ﴾ أى الزمن بيوتكن ، فلا تخرجن لغير حاجة فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكن على تستر تام .

وإن كان الخطاب لنساء النبى ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى . هذا ولم يرد دليل يخص جميع النساء . فأمر الله تعالى نساء النبى ﷺ بملازمة بيوتهن ، وخاطبهن بذلك تشريفا لهن .

٣ ـ **نهيهن عن التبرج ، تبرج الجاهلية الأولى** . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾ .

" **قال مجاهد** : كانت المرأة تمشى بين يدى الرجال فذلك تبرج الجاهلية ، وقال قتادة : كانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك ، وقال مقاتل : التبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج ، ثم عمت نساء المؤمنين فى التبرج "(١)

وقد اختلف فى المراد بالجاهلية الأولى ، " فقيل ، ما بين آدم ونوح ، وقيل ما بين نوح وادريس ، وقيل ما بين نوح وابراهيم ، وقيل ما بين موسى وعيسى ، وقيل ما بين عيسى ومحمد .

وقال أبو العباس المبرد : والجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء يُظهرون ما يقبح إظهاره ، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلها فينفرد خليلها بما فوق الإزار إلى أعلى ، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل .

وقال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنه أشار للجاهلية التى لحقنها ، فأُمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة ؛ لأنهم كانوا لا غَيْرة عندهم ، وكان أمر النساء

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٤/٣ .

دون حجاب وجَعْلُها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه ؛ وليس المعنى أن ثمَّ جاهلية أخرى ، وقد أُوقع إسم الجاهلية على تلك المدة التى قبل الإسلام ، فقالوا : جاهلى فى الشعراء " (١) .

وقال **الزمخشرى** : " ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام ·

فكأن المعنى : ولا تحدثن بالتبرج جاهلية فى الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر " (٢) .

ويعضده ما روى أن رسول الله ﷺ قال لأبى الدرداء رضى الله عنه : " إن فيك جاهلية " (٣) حين عير رجلا بأمه · مشيرا عليه الصلاة والسلام بجاهلية الأخلاق والسلوك السئ فى الإسلام ·

وأرجح هذه الآراء هى ما كانت قبل الإسلام ، حيث حدثهم بما أدركوه ويعرفونه من الانحرافات والعادات الفاسدة التى كانت سائدة فى ذاك الزمان وإذا ظهرت فى زمن الحضارة والتمدين وبعد ظهور الإسلام فهى أيضا جاهلية ·

٤ ــ ثم أمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله . فقال : ﴿ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن

---

(١) تفسير القرطبى ١١٧/١٤ بتصرف ·

(٢) الكشاف للزمخشرى ٢٣٥/٣ ·

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه · كتاب الإيمان · باب المعاصى من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها إلا بالشرك لقول النبى ﷺ : " إنك امرؤ فيك جاهلية ٩١/١ ــ ٩٢ فتح البارى ·

الله ورسوله ﴾ فقد خص الصلاة والزكـــاة لأنـــهما عمـــدة التكاليف وأصل الطاعات البدنية والمالية . ثم عمـــم فـــأمرهن بالطاعة لله ولرسوله فى كل ما هو شرع .

ثم بين سبحانه العلة من أمرهن ونهيهن فقال : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ أى : إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت الرسول ويطهركم مـــن دنس الفسق والفجور الذى يعلق بأرباب الذنوب والمعاصى .

فإذا قيل من هم أهل البيت ؟

نقول : اختلف أهل العلم فى أهل البيت المذكورين فى الآية فقيـــل : إن المراد ب (أهل البيت) نساء النبى ﷺ ، فقد روى عـــن ابـــن عباس ــ رضى الله عنهما ــ فى قوله تعالى : **﴿ إنمـــا يريـــد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت . . . ﴾** قال نزلت فى نســـاء النبى ﷺ خاصة [1]

وقيل : إن أهل البيت المذكورين فى الآية هم : الحسن والحسـين وفاطمة وعلى بن أبى طالب ــ رضى الله عنهم ــ

روى مسلم [2] بسنده " عن صفية بنت أبى شيبة قالت : قـــالت عائشة : خرج النبى ﷺ غداة وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ من شـــعر أســـود فجاء الحسن بن على فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثـــم جـــاءت

---

(١) أنظر تفسير الطبرى ٢٢ / ٨ ،٧ ،وتفسير ابن كثير ٣ / ٤٦٥

(٢) فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة رضى الله عنـــهم ١٥ / ١٩٤ ــ ١٩٥ شرح النووى . ومعنى المرَّحل أى : الموشى المنقوش عليه .

فاطمة فأدخلها ثم جاء عليٌّ فأدخله ثم قال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " .

فقد أنزل ﷺ الكساء بمنزلة البيت وألحق الكساء بحكم هذه الآية • كما أن وجوده ﷺ معهم فى الكساء فيه إجلالا لهم •

وقيل : إن أهل بيته من حُرِمَ الصدقة بعده . أخرج مسلم بسنده عن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم فلما جلسنا إليه قال له حصين لقد لقيتَ يا زيد خيراً كثيراً . رأيتَ رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً حدثنا يازيد ما سمعت من رسول الله ﷺ قال يا ابن أخى والله لقد كبرت سنى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فأقبلوا ومالا فلا تكلفونيه ثم قال : قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خُما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذَّكر . ثم قال : أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه . ثم قال : **وأهل بيتى (١) أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى . فقال له حصين ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حُرِمَ**

---

(١) سمى كتاب الله وأهل بيته ثقلين : لعظمهما وكبير شأنهما .

الصدقة بعده . قال ومن هم ؟ قال هم آل على وآل عقيل وآل جعفـر وآل عباس . قال كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة ؟ قال نعم " [١] .

وقد يظهر التعارض بين الأقوال الثلاثة :

ففى القول الأول أن أهل البيت نساء النبى ﷺ **والقول الثـانى** خاص بالحسن والحسين وفاطمة وعلى ابن أبى طالب ـ رضـى الله عنهم ـ وهى رواية مسلم ، **والقول الثالث** : أخرج نساء النبـى ﷺ وقصر أهل البيت على أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة وهـى رواية مسلم أيضاً .

إذن الخلاف فى هل أزواج النبى ﷺ يدخلن ضمن أهل البيت ؟

أقول الرواية الأولى نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فـى أهـل البيت لأنهن سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكـم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ وسياق الكلام معهن ، ولـهذا قال تعالى بعدهذا كله ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيـات الله والحكمة** ﴾ .

أما الرواية الثانية فلا خلاف فيها لأن السيدة فاطمة ـ رضـى الله عنها ـ وابنها الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ وزوجها الإمام على كرم الله وجهه هم من أصله وعصبته .

لكن الرواية الثالثة فقد بين الله فيها أن نسائه من أهل بيته الذيـن يساكنونه ويعولهم وأمر باحترامهم وإكرامهم وسماهم ثقلاً ووعظ فى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه • كتاب فضائل الصحابـة رضـى الله عنـهم ١٥/١٧٩ ـ ١٨٠ شرح النووى •

حقوقهم وذكر . فنساؤه داخلات فى هذ كله ولا يدخلن فيمن حُـرِمَ الصدقة .

وبهذا يتبين لنا أنه لا تعارض ولا تناقض بين الروايات فأهل بيته هم نساؤه وأقاربه أصله وعصبته .

ثم بين سبحانه ما أنعم به عليهن من أن بيوتهن مهابط الوحى بقوله : ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾ أى : واذكرن نعمة الله عليكن ، بأن جعلكن فى بيوت تتلى فيها آيات الله ، وما يوحى إلى رسول الله ﷺ من أحكام الدين ولم ينزل فيه قرآن ، فاحمدن الله على ذلك واشكرنه على جزيل فضله عليكن .

قال القرطبى [1] " قال أهل العلم بالتأويل : (آيات الله) القرآن ، (والحكمة) السنة " .

وقيل : المراد بالآيات والحكمة معا : القرآن الكريم ، وهو أوفق بقوله تعالى ﴿ **يتلى** ﴾ أى : اذكرن ما يتلى من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله الدالة على صدق النبى ﷺ .

الإعراب :

قوله تعالى : ﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن** ﴾ لستن : ليس والتاء اسمها ، والنون علامة جمع الإناث ، كأحد : خبر لستن ومن النساء : صفة لأحد ، وإن : شرطية ،

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١١٩ .

واتقيتن : فعل ماض وفاعله وهو فى محل جـــزم فعــل الشــرط ، والجواب محذوف يدل عليه ما قبله أى فإنكن أعظم .

وقوله : ﴿ **فلا تخضعن بالقول** ﴾ مستأنفا لتعليل نفى المســـاواة ويجوز أن تكون الفاء رابطة وجملة ﴿ **لا تخضعن** ﴾ فى محل جزم جواب الشرط ، وبالقول : جار ومجرور متعلقان بتخضعن .

قوله : ﴿ **فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا** ﴾ الفاء للسببية ، ويطمع : فعل مضارع منصوب بأن مضمـــرة بعــد فـــاء السببية المسبوقة بالنهى ، الذى : فاعل يطمع ، فى قلبه : متعلقـــان بمحذوف خبر مقدم ، مرض : مبتدأ مؤخر والجملة صلة ، وقلـــن : الواو عاطفة ، قلن : فعل أمر والنون فاعل ، وقولا : مفعول مطلـــق مبين للنوع ، معروفا : صفة . ﴿ **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾ عطف على ما تقدم ، وقرن : فعل أمر ، وفـــى بيوتكن : متعلقان بقرن ، ولا تبرجن : لا ناهيـــة وتـــبرجن فعــل مضارع مجزوم ، تبرج الجاهلية : مفعول مطلق ، والأولى : نعـــت للجاهلية . ﴿ **واقمن الصلاة وآتين الزكاة وآطعن الله ورســـوله** ﴾ عطف على قرن فى بيوتكن .

﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ إنما : كافة ومكفوفة ، يريد الله : فعل مضارع وفاعل ، وليذهب : الـــلام للتعليل ، ويذهب : فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الـــلام ، وجملة (إنما يريد) تعليل لجميع ما تقدم ، وعنكـــم : متعلقـــان بيذهب ، والرجس : مفعول به ، وأهـــل البيـــت : نصـــب علـــى الاختصاص للمدح أى أخص أهل البيت ، ويجوز أن يكون منـــادى

محذوف لأداة أو على البدل من الكاف فى عنكم ، ويطهركم : عطف على يذهب ، وتطهيرا : مفعول مطلق . ﴿ **واذكرن ما يتلـــى فـــى بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾ الواو عاطفة ، واذكرن : فعل أمـر والنون فاعل ، وما : مفعول به ، وجملة يتلى صلة ،ويتلى : فعـــل مضارع مبنى للمجهول ، ونائب الفاعل مستتر يعود على ما، وفـــى بيوتكن : متعلقان بيتلى ، ومن آيات الله : حال ، والحكمة : عطـف على آيات الله . ﴿ **إن الله كان لطيفا خبيرا**﴾ إن واسمها ، وجملـــة كان خبرها ، واسم كان مستتر يعود على الله ، ولطيفـــا : خبرهـا الأول ، وخبيرا : خبرها الثانى .

الأوصاف التى يستحق بها عباد الله الثواب العظيم

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(٣٥) ﴾

معانى المفردات :

الإسلام : الإنقياد والخضوع لأمر الله .

الإيمان : التصديق بما جاء عن الله من أمر ونهى .

القنوت : الطاعة فى السكون . وقيل : الخشوع والإقرار بالعبودية ٠

الصبر : تحمل المشاق على المكاره والعبادات والبعد عن المعاصى .

الخشوع : السكون والطمأنينة .

أعد الله لهم مغفرة : أى هيأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم .

واجراً عظيما : أى نعيما عند ربهم يوم القيامة .

علاقة هذه الآية بما قبلها :

تتصل هذه الآية بما قبلها اتصالا وثيقا ؛ فهى مستأنفة استئنافا بيانيا لأن قوله تعالى : ﴿ **ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما** ﴾ الآية (٣١) ثم قال بعد ذلك :

﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ..** ﴾ إلى قوله ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا** ﴾ كل هذا يثير فى نفوس المسلمات أن يسألن : هل هن مأمورات بمثل ما أمرت به أزواج النبى ﷺ ، وهل هن مأجورات على ما يعملن من الحسنات أم تلك خصائص نساء النبى ﷺ ؟ فكان الجواب عن هذا السؤال فى هذه الآية فقال تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات ...** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ .

سبب نزول الآية :

روى الإمام أحمد [(١)] **عن عبد الرحمن بن شيبة قال** : " سمعت أم سلمة زوج النبى ﷺ تقول : قلت للنبى ﷺ : ما لنا لانذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت فلم يُرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر يأيها الناس إن الله يقول فى كتابه ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ٦ / ٣٠١ ، وذكره السيوطى فى لباب النقول ص ٦٣ .

وروى **الترمذى** [1] بسنده عن عكرمة عن أم عمار الأنصارية أنها أتت النبى ﷺ فقالت : ما أرى كل شئ إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشئ ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ **إن المسلمين والمسلمات** . . . ﴾ الآية .

وقد علق **الألوسى على هذه الروايات** الواردة فى أسباب النزول بقوله : " ولا مانع أن يكون كل ذلك سببا فى نزول هذه الآية " [2]

فى هذه الآية الكريمة ذكر الله سبحانه الأوصاف التىيستحق بها عباده أن يمحو عنهم زلاتهم ويثيبهم بالنعيم المقيم عنده وهى :

١ ـ **الإسلام الظاهر** بالإنقياد لأحكام الدين فى القول والعمل .

٢ ـ **الإسلام الباطن** بالتصديق التام والإذعان لما فرض الله تعالى من أوامر ونواهى ، وهذا هو الإيمان .

قال القرطبى : " وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب ، وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبى ﷺ فى الظاهر ، وذلك يحقن الدم " [3]

٣ ـ **القنوت** : وهو دوام العمل والطاعة لله تعالى مع الخضوع فى هدوء وطمأنينة كما قال : ﴿ **أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه** ﴾ [4] .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب تفسير القرآن ٥ / ٣٥٤ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وإنما يعرف هذا الحديث من هذا الوجه .

(٢) روح المعانى للألوسى ٢٢/٢٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٦ / ٢٢٧ .

(٤) سورة الزمر الآية ٩ .

٤ ـ **الصدق فى الأقوال والأعمال** ، وهو علامة الإيمان كما أن الكذب أمارة النفاق ، فمن صدق نجا ، وفى الحديث " عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار " [١] .

٥ ـ **الصبر على المكاره** وتحمل المشاق فى أداء العبادات وترك الشهوات .

٦ ـ **الخشوع والتواضع لله** ـ تعالى ـ بالقلب والجوارح ابتغاء ثوابه وخوفاً من عقابه كما جاء فى الحديث " اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " [٢] .

٧ ـ **التصدق بالمال** والإحسان إلى المحتاجين الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، وقد ثبت فى الصحيح : " سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله . . . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه " [٣] .

٨ ـ **الصوم** فإنه نعم العون على كسر الشهوة ويطهر البدن من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ، فقد جاء عن النبى ﷺ أنه قال " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء "[٤] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب ١٣ / ١٢١ ـ ١٢٢ . فتح البارى .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب الإيمان ٥ / ٦ ـ ٧ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الزكاة ٤ / ٣٥ . فتح البارى .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب النكاح باب من لم يستطع الباءة فليصم ١١ /١٣ فتح البارى .

٩ ــ **ذكر الله ذكراً كثيراً بالألسنة والقلوب** ، روى عن النبى ﷺ أنه قال : " إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات " (١) ، وروى الأمام أحمد فى مسنده عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : " إن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ قال ﷺ : أكثرهم لله تعالى ذكراً ، ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول رسول الله ﷺ أكثرهم لله ذكراً ، فقال : أبو بكر لعمر رضي الله عنه ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال ﷺ : أجل " .

هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف يمحو الله عنهم ذنوبهم ويؤتيهم الأجر العظيم فى جنات النعيم .

وقد جاءت هذه الوصاف على هذا النسق والترتيب من العلى القدير فهى غاية فى التناسق والتناغم فكل صفة تمهد للصفة التى بعدها .

يقول الأستاذ / عبد الكريم الخطيب : " فالإسلام الذى جاء بدءا هو أول درجات السلم الذى يرقى فيه المرء إلى منازل الشريعة ، وهو المدخل الذى يدخل منه إلى دين الله ، والإيمان هو العروج بالإسلام إلى موطنه من القلب ، والقنوت هو استجابة القلب وتقبله لهذا الإيمان الذى استقر فيه واطمأن به ، والصدق هو نبته تنبت من بذرة الإيمان فى القلب ، والصبر هو الغذاء الذى تتغذى منه تلك النبتة حتى تقاوم الآفات التى تعرض لها ، وحتى تعطى الثمر المرجو منها ، والخشوع هو الولاء لله والامتثال لأمره ــ هو أول ما تفتح من زهر بيد الصبر .

---

(١) أخرجه أبو داوود فى سننه ــ كتاب الصلاة . باب الحث على قيام الليل ٢ / ٧٠ .

هذا ويلاحظ أن هذه الأوصاف الستة إنما يكتسبها الإنسان من داخل نفسه وفى حدود ذاته فيما بين اللسان والقلب ، وهـــى فـــى مجموعـــها الرصيد المودع فى قلب الإنسان من قوى الإيمان ·

وأما التصدق والصوم وحفظ الفروج وذكر الله فهى أعمال تســتلزم سلطان القلب وخدمة الجوارح ·

وبهذا نرى أن هذه الصفات بناء متكامل يقوم بعضه علـــى بعــض ويستند التالى منه إلى السابق ، بمعنى أن هذا الترتيب الذى جاءت عليه الآية هو أمر لازم ، لكى يتألف منها هذا النغم المتناسق الذى يقيم فـــى كيان الإنسان إيمانا صحيحيا مثمرا " (١)

الإعراب :

قولـــه تعـــالى : ﴿ **إن المســلمين والمسـلمات والمؤمنيـــن والمؤمنات والقانتين والقانتات والصــادقين والصادقــات ···** ﴾

الآية كلام مستأنف مسوق لخطاب النساء بما يخاطب به الرجـــال من شئون الهداية والتعاليم السامية . إن واسمها وما بعدها عطـــف على الاسم إلى قوله والذاكرات ، وفروجهم : مفعول به للمخـــاطبين · وكذلك قوله ﴿ **والذاكرين الله** ﴾ : فلفظ الجلالة مفعول به للذاكريـــن · وجملة أعد : خبر إن ، والله : فاعل أعد ، ولهم : متعلقان بـــأعد ، وأجراً : مفعول أعد وعظيماً صفة .

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن ــ لعبد الكريم الخطيب ٧١١/١١ ــ ٧١٢ ·

قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْـرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَـــدْ ضَـلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا(٣٦)وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيـــهِ وَتَخْشَـــى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَـــهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَـــوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً(٣٧)مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّـهِ قَدَرًا مَقْدُورًا(٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُــونَ رِسَــالاَتِ اللَّــهِ وَيَخْشَــوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا(٣٩)مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَـدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عَلِيمًا(٤٠) ﴾ .

علاقة صدر الآيات بما قبلها :

لما ذكر الله تعالى تلك الأوصاف من الإسلام فما بعده فـــي قولـــه تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ... ﴾ عقّب على ذلك بما صدر من بعض المسلمين عندما أشار الرسول ﷺ بأمر ، فوقع منهم الإبـــاء ، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك ، إذ طاعته عليه السلام من طاعة الله .

سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة .. ﴾ الآية .

أخرج ابن جرير الطبرى [1] من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت أنا خير منه حسباً ، وكانت امرأة فيها حدة فأنزل الله ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا** ﴾ .

وقيل نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وكانت من أول من هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبى ﷺ فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هى وأخوها وقالا إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده . فنزلت الآية [2] .

وسواء أكان سبب النزول هذا أم ذاك فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فما ينبغى لمؤمن أيا كان ولا مؤمنة أيا كانت (إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .

ومعنى الآية : أنه لا يحل لمن يؤمن بالله إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يختار من أمر نفسه ما شاء . بل يجب عليه أن يذعن للقضاء ويوقف نفسه تحت ما قضاه الله عليه واختاره له .

وهذه الآية عامة فى جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشئ فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأى ولا قول كما

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢ / ١٠ .

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١٧٤ ــ ١٧٥ .

أنها تقرر كلية أساسية فى منهج الإسلام ألا وهـــى التسـليم المطلــق والاستسلام الكامل والانقياد التام لله ورسوله ٠

وجمع الضميرين فى قوله ﴿ **لهم** ﴾ و ﴿ **من أمرهم** ﴾ لأن مؤمن ومؤمنة نكرة وقعا فى سياق النفى فعما كل مؤمن ومؤمنة ، و﴿ **الخـــيرة** ﴾ مصدر بمعنى الأختيار .

ثم توعد سبحانه من لم يذعن لقضاء الله وقدره فقـــال : ﴿ **ومـــن يعص الله ورسوله** ﴾ فى أمر من الأمور ، ومن ذلـــك عـــدم الرضـــا بالقضاء .﴿ **فقد ضل ضلالا مبينا** ﴾ أى ضل عن طريق الحق ضـــلالا ظاهرا واضحا لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا تقول للذى أنعم الله عليه** ﴾ خطاب للنبــى ﷺ أى اذكر وقت قولك . ﴿ **للذى أنعـــم الله عليـــه** ﴾ بتوفيقـــه للإســـلام وتوفيقك لحسن تربيته وعتقه ومراعاته وتخصيصــــه بـــالتبنى ومزيـــد القرب .

﴿ **وانعمت عليه** ﴾ بما وفقك الله فيه فهو متقلب فـــــى نعمـــة الله ونعمة رسوله ﷺ وهو زيد بن حارثة .

﴿ **أمسك عليك زوجك** ﴾ أى زينب بنت جحش وذلك أنها كـــانت ذا حدة ولا زالت تفخر على زيد بشرفها ، ويسمع منها ما يكره فجـــاء ﷺ يوماً إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إن زينب قد اشتد علىَّ لســـــانها وأنا أريد أن أطلقها فقال ﷺ أمسك عليك زوجك واتق الله فى أمرها ولا تطلقها ضراراً وتعللا بتكبرها واشتداد لسانها عليك .

قوله : ﴿ **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه** ﴾ الواو فى ﴿ وتخفى فى نفسك ﴾ و ﴿ وتخشى الناس ﴾ و ﴿ والله أحق أن تخشاه ﴾ واو الحال ، أى : تقول لزيد أمسك عليك زوجك مخيفا فى نفسك إرادة أن لا يمسكها وتخفى خاشياً قالة الناس وتخشى الناس حقيقاً فى ذلك بأن تخشى الله . أو واو العطف كأنه قيل : وإذ تجمع بين قولك أمسك وإخفاء خلافه وخشية الناس والله أحق أن تخشاه حتى لا تفعل مثل ذلك .

فإن قيل : ما الذى أخفاه النبى ﷺ فى نفسه ؟

قال القرطبى (١) : " ذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير الطبرى وغيره أن النبى ﷺ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش وهى فى عصمة زيد ، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو ، ثم إن زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها ويشكو من غلظة قول وعصيان أمر وأذى باللسان وتعظما بالشرف قال له : اتق الله فيما تقول عنها وأمسك عليك زوجك وهو يخفى الحرص على طلاق زيد إياها ، وهذا الذى كان يخفى فى نفسه ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف .

وقال مقاتل : زوج النبى ﷺ زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حيناً ، ثم إنه عليه السلام أتى زيداً يوماً يطلبه ، فأبصر زينب قائمة ، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش ، فهويها وقال : " سبحان الله مقلب القلوب " ! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ، ففطن زيد فقال : يا رسول الله ائذن لى فى طلاقها ، فإن فيها كبراً

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٢٣ ، ١٢٤ .

تعظم علىَّ وتؤذينى بلسانها فقال ـ عليه السلام ـ : " امسك عليك زوجك واتق الله " .

وقيل : إن الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينب متفضلة فى منزلها ، فرأى زينب فوقعت فى نفسه ، ووقع فى نفس زينب أنها وقعت فى نفس النبى ﷺ وذلك لما جاء يطلب زيداً ، فجاء زيد فأخبرته بذلك ، فوقع فى نفس زيد أن يطلقها .

وقال ابن عباس : ﴿ **وتخفى فى نفسك** ﴾ الحب لها . ﴿ **وتخشى الناس** ﴾ أى تستحييهم .

وقيل: تخاف وتكره لائمة المسلمين لو قلت طلقها ، ويقولون أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها " . (١)

وأخرج الحكيم الترمذى وغيره عن على بن الحسين ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أن النبى ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدا يطلق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكى زيد للنبى ﷺ خُلق زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية : " اتق الله فى قولك وأمسك عليك زوجك " وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها ، وهذا هو الذى أخفى فى نفسه ، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها ، وخشى رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس إذا تزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أنه خشى الناس فى شئ

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٢٣ ، ١٢٤ .

قد أباحه الله له ، بأن قال : ﴿ **أمسك عليك زوجك** ﴾ مع علمه بأنــــه يريد طلاقها . وأعلمه الله أنه أحق بخشيته فى كل حال . كما روى ابن كثير عن السدِّى أنه قال نحو ذلك [١]

وهذا القول أحسن ما قيل فى هذه الآية ، وهذا الذى عليــــه أهــل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين [٢] ، وهو أدخل فـــى القلــب وأقرب إلى اليقين ، وهو المناسب لصريح مدلـــول الآيـــة ، والمــراد بقوله : ﴿ **وتخشى الناس** ﴾ إنما هو إرجاف المنافقين بأنه ﷺ نهى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة ابنه .

فأما ما روى عن أن النبى ﷺ هَوِى زينب امرأة زيـــد ــ وربمــا أطلق بعض المُجَان لفظ عَشِق ــ فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمـــة النبى ﷺ عن مثل هذا ، أو مستِخفّ بحرمته .

وحاصل العتاب : يقول سبحانه للنبى ﷺ لم قلت : ﴿ **أمســك عليـك زوجك** ﴾ وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك ، وهو مطابق للتــلاوة لأن الله تعالى أعلم أنه مبدى ما أخفاه ﷺ ولم يظهر غير تزويجــها منـــه فقــال سبحانه : ﴿ **زوجناكها** ﴾ فلو كان المضمر " محبتها وإرادة طلاقها " ونحــو ذلك لأظهره جل وعلا .

وكأن الذى أراده منه عز وجل أن يصمت عندما عرض زيـــد عليه ﷺ طلاق زينب بنت جحش أو يقول له : أنت أعلم بشأنك ؛ حتى لا يخالف سره فى ذلك علانيته لأن الله يريد من الأنبياء تساوى الظاهر

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٧٢/٣ .

(٢) انظر حاشية الجمل على تفسير الجلالين ٤٤٠/٣ ، والبحر المحيط ٤٨٢/٨ .

والباطن ، والإستمرار على طريقة مستتبة كما جاء فـــى حديـــث إرادة رسول الله ﷺ قتل عبد الله بن أبى سرح واعتراض عثمان بن عفان ﷺ بشفاعته له أن عمر قال له : لقد كان عينى إلى عينك هل تشير إلـــى فأقتله . فقال ﷺ : إن الأنبياء لا تومض . ظاهرهم وباطنهم واحد .

مسألة :

من المعلوم أنه ﷺ مأمور من الله تعالى بتبليغ ما يوحـــى إليـــه ، فإذا كان الله تعالى قد أعلمه أو أوحى إليه أن زيدا سيطلق زينـــب ، وأنه ﷺ سيتزوجها ، فلماذا لم يصدع الرسول بهذا البـــلاغ صدعـــا لا خشية فيه ولا مواربة ؟

يجيب عن هذا السؤال الشيخ / سيد قطب [1] فيقول : " ... وهذا الذى أخفاه النبى ﷺ فى نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمـــه الله أن سيفعله . ولم يكن أمرا صريحا من الله . وإلا ما تردد فيـــه ولا أخره ولا حاول تأجيله . ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التـــى يتوقعها من إعلانه . ولكنه ﷺ كان أمام إلهام يجده فى نفسه ويتوجـــس فى الوقت ذاته من مواجهته ، ومواجهة الناس به . حتـــى أذن الله بكونه . فطلق زيد زوجه فى النهاية . وهو لا يفكر لا هو ولا زينب ، فيما سيكون بعد . لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن لمحمـــد لا تحل له . حتى بعد إبطال عادة التبنى فى ذاتها . ولم يكن قد نـــزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء . إنما كان حادث زوج النبى فيما بعد هـــو

(١) فى ظلال القرآن ٥/٢٨٦٩ .

الذى قرر هذه القاعدة ، بعدما قوبل هذا القـــرار بالدهشـــة والمفاجـــأة والاستنكار ،

وفى هذا ما يهدم كل الروايات التى رويت فى هذا الحادث ، والتـــى تشبث بها أعداء الإسلام قديما وحديثا ، وصـــاغوا حولـــها الأســـاطير والمفتريات ! ... وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة حملـــها رسول الله ﷺ فيما حمل ، وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية ، حتى ليتردد فى مواجهته بها وهو الذى لم يتردد فى مواجهتـــه بعقيـــدة التوحيد ، وذم الآلهة والشركاء ، وتخطئة الآباء والأجداد " أ ، هـ

وأخرج البخارى [1] **بسنده عن أنس قال** : جاء زيد بـــن حارثـــة يشكو ، فجعل النبى ﷺ يقول : اتق الله وأمسك عليك زوجك ، قـــالت عائشة : لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا لكتم هذه ... "

وفى هذا الحديث ما يدل على أن الذى أخفاه النبى ﷺ لم يكن وحيا أُمر بتبليغه ، وإنما كان إلهاما وقع فى نفسه ، فلما أمره الله بذكر ذلـــك للأمة وتبليغ خبره بلغه ولم يكتمه ، فلو كان كاتما لكتم هذه الآية التـــى هى حكاية سر بينه وبين ربه تعالى ، ولكنه لما كان وحيا بلغـــه لأنـــه مأمور بتبليغ كل ما أنزل إليه من ربه ،

قوله تعالى : ﴿ **فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها** ﴾ أى فلمـــا قضى زيد حاجته من نكاحها فطلقها وانقضت عدتها فلم يكن فى قلبـــه ميل إليها ولا وحشة من فراقها ﴿ **زوجناكها** ﴾ أى : جعلناها زوجـــا

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب التوحيد ، باب : وكان عرشه على المـــاء وهو رب العرش العظيم ١٧ / ١٨٣ فتح البارى ،

لك بلا واسطة عقد إصالة أو وكالة فقد صح من حديث البخارى والترمذى " أنها ـ رضى الله تعالى عنها ـ كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ تقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات" [١] .

وأخرج ابن جرير الطبرى [٢] عن الشعبى قال : كانت زينب زوج النبى ﷺ تقول للنبى ﷺ : إنى لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن إن جدى وجدك واحد ، وإنى أنكحنيك الله من السماء ، وإن السفير لجبرائيل ـ عليه السلام ـ .

ثم بين سبحانه الحكمة من هذا الزواج فقال : ﴿ لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ أى إن تزوجك من زينب له حكمة هى : إبطال الحرج الذى كان يتحرجه الناس فى الجاهلية من أن يتزوج الرجل مطلقة دعَّيه أو متبناه ، وكان التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابهم أمراً تدين به العرب وتعده أصلاً ترجع إليه فى الحسب والشرف ، وكانوا يعطون الدعَّى جميع حقوق الإبن ويُجْرون عليه الأحكام التى يعطونها للابن حتى الميراث وحرمة النسب ـ فأراد الله محو ذلك بالإسلام حتى لا يعرف إلا النسب الصريح . ومن ثم قال فى أول السورة **﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾**

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب التوحيد ، باب : وكان عرشه على الماء ١٨٤/١٧ فتح البارى .

وأخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير ٣٥٤/٥ ـ ٣٥٥ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٢ / ١١ .

وبهذا حرم على المسلمين أن ينسبوا الدعى إلى من تبناه وأن لا يكون للمتبنى إلا حق المولى والأخ فى الدين وحظر عليهم أن يقتطعوا له حق من حقــوق الابن لا قليلاً ولا كثيراً .

وما رسخ فى النفوس بحكم العادة لا يمكن التخلص منه إلا بـــإرادة قوية ، ومن ثم ألهم الله رسوله أن يلغى هذا الحكم بالعمل كمـــل ألغـــى بالقول فى أحد عتقاه ، ومن ثم أرغم بنت عمته لتتزوج بزيد وهو متبناه ليكون هذا الزواج مقدمة لتشريع إلهى جديد ، ثم تزوجـــها بعــد ذلـــك ليمزق حجاب تلك العادة .

ثم ختم سبحانه الآية بقوله ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ أى : وكـان ما قضى الله من قضاء كائناً لا محالة ؛ أى إن قضاء الله فى زينـــب أن يتزوجها زيد بن حارثة وطلاقه إياها ثم يتزوجها رسول الله ﷺ كـــائن ماض لابد منه .

والجملة اعتراض تزييلى مقرر لما قبله من تزويج زينب ــ رضى الله تعالى عنها ــ .

ثم أكد ما سلف بقوله : **﴿ ما كان على النبى حرج فيما فــرض الله له ﴾** أى ليس على النبى حرج من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياهــا مادام أمر الله كائنا لا محالة ، فكيف يكون على النبى حرج فى شئ هو من أمر الله .

والآية دفاع عن النبى ﷺ لما حدث من المنافقين وتقولهم عليه بـأن محمدا تزوج زوجة متبناه .

ثم بين أن الرسول ﷺ ليس بدعاً فى الرسل فيما أباح له فقـــال : ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل** ﴾ أى : هذا حكم الله تعـــالى فـــى الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشئ وعليهم فى ذلك حرج ، وهـــذا رد على من اعترض على زواج النبى ﷺ من امرأة مولاه ودعيـــه الـــذى كان قد تبناه.

وقوله : ﴿ **سنة الله** ﴾ أى : سن الله تعالى ذلك سنة فهو مصـــدر منصوب بفعل مقدر من لفظه ، والجملة مؤكدة لما قبلها مـــن نفـــى الحرج ، وذهب الزمخشرى إلى أنه اسم موضوع موضع المصـدر لأن السنة بمعنى الطريقة والسيرة ، وكأنه لم تثبت عنده مصدريته ، وقيل : منصوب بتقدير الزم . و (فى الذين) جار ومجرور متعلقان بمحـذوف حال أى متبعة وجملة (خلوا) صلة الذين وهم الأنبياء الذين خلوا قبـل النبوة ، و (من قبل) جار ومجرور متعلقان بخلوا .

قوله :﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدورا** ﴾ كان وإسـمها ، وقـدراً خبرها ، ومقدورا صفة لازمة للتأكيد . والمعنى : وكان أمره تعالى الذى يقدره كائنا لا محالة ، وواقعا لا محيد عنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

ثم مدح سبحانه الأنبياء السابقين وأثنى عليهم فقال : ﴿ **الذين يبلغـون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله** ﴾ . وقوله : ﴿ **الذيـــن يبلغون رسالات الله** ﴾ فى محل جر صفة للأنبياء أى ســـنة الله فـــى الأنبياء الذين خلوا من قبل ، أو خبر لمبتدأ محذوف أى : هم الذيـــن ، وجملة ﴿ **يبلغون** ﴾ صلة ، ﴿ **ورسالات الله** ﴾ مفعول يبلغون .

والمعنى : أن هؤلاء الذين جُعِل محمداً متبعا سنتهم وسالكا سبيلهم هم الذين يبلغون رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليهم ، ويخافون الله فى تركهم تبليغ ذلك ، ولا يخافون سواه .

والخلاصة : كن من أولئك الرسل الكرام ، ولا تخشى أحداً غير ربك فإنه يحميك ممن يريدك بسوء أو يمسك بأذى .

ثم ختم سبحانه الآية بقوله : ﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾ أى وكفى الله ناصراً ومعيناً وحافظاً لأعمال عباده ومحاسباً لهم عليها .

قوله تعالى : **﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما ﴾**

علاقة الآية بما قبلها :

هذه الآية متصلة بالآيات التى قبلها اتصالا وثيقا ، وذلك لما تزوج الرسول ﷺ زينب رضى الله عنها قالوا : تزوج حليلة ابنه فأنزل الله تعالى : **﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾** أى ما كان لك أن تخشى أحدا من الناس بزواج امرأة متبناك ، فإنك لست أبا لأحد من الناس ، ولكنك رسول الله فى تبليغ رسالته إلى الخلق ، فأنت أب لكل فرد فى الأمة فيما يرجع إلى التوقير والتعظيم ووجوب الشفقة عليهم كما هو دأب كل رسول مع أمته .

ولم يقصد بهذه الآية أن النبى ﷺ لم يكن له ولد . فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والظاهر من خديجة ـ رضى الله عنها ـ فماتوا صغاراً ، وولد له ﷺ ابراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضاً رضيعا ، وكان له ﷺ من خديجة ـ رضى الله عنها ـ أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم

وفاطمة ــ رضى الله عنهن أجمعين ــ والثلاث الأول متن فى حياته ﷺ وماتت فاطمة بعد أن قبض ﷺ إلى الرفيق الأعلى بستة شهور .

وقوله : ﴿ **ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ أى لا نبى بعده ، وهذه الآية الكريمة نص على تكذيب كل من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ إلى يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين .

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى ، قال : فشق ذلك على الناس فقال : لكن المبشرات ، قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : رؤيا المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة [١] .

وروى البخارى [٢] بسنده عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين .

وفى رواية لمسلم [٣] بسنده عن جابر ﷺ ، بنحوه غير أنه قال : فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب الرؤيا . باب : ذهبت النبوة وبقيت المبشرات ٤ / ٥٣٣ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب خاتم النبيين ﷺ ٧ / ٣٧٠ من الفتح .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الفضائل . باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ١٥ / ٥١ شرح النووى .

وأخرج مسلم [1] **عن أبى هريرة** رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون "

أيضا أخرج مسلم [2] **عن محمد بن جبير** بن مطعم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : " إن لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد .. "

ثم ختم سبحانه الآية بقوله ﴿ وكان الله بكل شئ عليما ﴾ أى قد أحاط علمه بكل شئ ، ومن جملة معلوماته هذه الأحكام المذكورة هنا .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة ٥/٥ شرح النووى

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الفضائل . باب : أسماؤه ﷺ ١٥ / ١٠٤ ـ ١٠٥ شرح النووى .

الأمر بكثرة ذكر الله تعالى وتسبيحه وتقرير رحمة الله تعالى للمؤمنين

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(٤١)وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٤٢)هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(٤٣)تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا(٤٤)﴾

علاقة هذه الآيات بما قبلها :

بعد أن ذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبى ﷺ مع ربه من تقواه وإخلاصه له فى السر والعلن ، وما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وأقاربه من راحتهم وإيثارهم على نفسه فيما يطلبون كما يومئ إلى ذلك قوله ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك** ﴾ وبعد تحريم التبنى الذى لو استمر لنشأ عنه خلافاً بين أفراد المجتمع .. أرشد عباده إلى تعظيمه تعالى وإجلاله بذكره والتسبيح له بكرة وأصيلا ، فهو الذى يرحمهم ، وملائكته يستغفرون لهم ، كى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وكان بعباده رحيما .

الإيضاح :

قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا** ﴾ أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكراً كثيراً فى جميع أحوالكم .

أخرج بن جرير الطبرى [1] عن ابن عباس قال : " لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوما ثم عذر أهلها فى حال عذر غير الذكر فإن الله لم يجعل له حدا ينتهى إليه ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على عقله قال تعالى : ﴿ **أذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم** ﴾ بالليل والنهار فى البر والبحر وفى السفر والحضر والغنى والفقر والسقم والصحة والسر والعلانية وعلى كل حال " .

وروى عن الرسول ﷺ قال : " ألا انبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى . قال : ذكر الله تعالى " [2] .

وعن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه : أن رجلا قال : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علىَّ فأخبرنى بشئ أتشبث به [3] . قال لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله [4] .

وعن الأغر بن مسلم أنه شهد على أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال : ما من قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده [5] .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢ / ١٣ .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب الدعاء باب ما جاء فى فضل الذكر ٥ / ٤٥٩ .

(٣) أتشبث به : أى أتعلق به وأستمسك .

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الدعاء ٥ / ٤٥٨ .

(٥) أخرجه الترمذى فى سسنه كتاب الدعاء ٥ / ٤٦٠ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ **وسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾ أى نزهوه عما لا يليق به عند الصباح والمساء ، كقوله عز وجل : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون** ﴾ [١] ، وتخصيصهما بالذكر ليس لقصر التسبيح عليهما دون سائر الأوقات بل لفضلها على سائر الأوقات لكونهما تحضرهما ملائكة الليل والنهار وتلتقى فيهما ، كإفراد التسبيح من بين الأذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة بينها .

ثم ذكر السبب فى هذا الذكر والتسبيح فقال : ﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته** ﴾ .

سبب نزول الآية :

أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لما نزلت ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى**﴾ قال أبو بكر : يا رسول الله ، ما أنزل الله عليك خيرا إلا أشركنا فيه فنزلت [٢] ﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته** ﴾ . والصلاة على العباد رحمته لهم وبركته عليهم ، ومن الملائكة الدعاء لهم والإستغفار كما قال تعالى ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٧)** ﴾ [٣] .

---

(١) سورة الروم الآية ١٧ .

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ١٧٥ / ١٧٦ .

(٣) سورة غافر الآية ٧ .

والآية مستأنفة كالتعليل لما قبلها من الأمر بالذكر والتسبيح ،وبيان أن الله تعالى يجازى المؤمنين بأفضل من ذلك ، وهو صلاته وصلاة ملائكته ، والمعنى أنه يصلى عليكم وملائكته إذا ذكرتموه ذكرا بكرة وأصيلا وعطف (ملائكته)على الضمير فى (يصلى) لوقوع الفصل بقوله (عليكم) فأغنى ذلك عن التأكيد بالضمير المنفصل . فليس المعنى فى الآية هو الذى يصلى عليكم ، وملائكته يصلون عليكم ، وإنما المعنى : هو الذى يصلى هو وملائكته عليكم . وبهذا تصير صلاة الملائكة تابعة للخبر ، ومندمجة فى الصلة .

قوله تعالى : ﴿ **ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ اللام فى (ليخرجكم) متعلق بيصلى فعلم أن هذه الصلاة جزاء عاجل حاصل وقت ذكرهم وتسبيحهم : والمعنى : يعتنى بأموركم هو وملائكته ليخرجكم من ظلمات المعاصى إلى نور الطاعات ومن ظلمة الضلالة إلى نور الهدى .

ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنين تأنيسا لهم وتثبيتا فقال : ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيما** ﴾ وهذه الجملة تقريرلمضمون ما قبلها .

ثم بين سبحانه أن هذه الرحمة منه لاتخص السامعين وقت الخطاب بل هى عامة لهم ولمن بعدهم وفى الدار الآخرة فقال :

﴿ **تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريما** ﴾ .

علاقة هذه الآية بما قبلها :

هذه الآية متصلة بالتى قبلها اتصالا وثيقا ، فهى تكملة للتى قبلها ، فقد أفادت أن صلاة الله وملائكته واقعة فى الحياة الدنيا وفى الدار

الآخرة . كما بينت الآية السابقة آثار رحمته تعالى العاجلة فى الدنيا وهى الإخراج من الظلمات إلى النور . ثم بينت هذه الآية رحمته تعالى فى الآخرة .

والجملة استئناف مسوق لبيان ما أعد لهم فى الآجلة ، وتحيتهم : مبتدأ والهاء مضاف لتحية من إضافة المصدر إلى مفعوله أى تحية الله لهم . والظرف متعلق بمحذوف حال وجملة يلقونه : فى محل جر بإضافة الظرف إليها . وسلام : خبر تحيته ، والواو استئنافية ، وأعد : فعل ماض والفاعل مستتر يعود على الله ، ولهم : جار ومجرور متعلقان بأعد ، وأجراً : مفعول به ، وكريما : صفة .

والمعنى : أى : تحية المؤمنين من الله سبحانه يوم لقائهم له عند الموت أو عند البعث أو عند دخول الجنة هى التسليم عليهم منه عز وجل وقيل : المراد : تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربهم سلام ، وذلك لأنه كان بالمؤمنين رحيما فلما شملتهم رحمته وآمنوا من عقابه حيا بعضُهم بعضَهم سروراً واستبشارا ، . كما فى قوله تعالى **﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٠) ﴾** (١) . والمعنى : سلامة لنا من عذاب النار . وقيل : هى تسليم الملائكة عليهم يوم يلقون الرب كما فى قوله تعالى : **﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾** (٢) .

---

(١) سورة يونس الآية ١٠ .

(٢) سورة الرعد الآية ٢٣ .

وقيل : هو دعاء لهم بدوام السلامة ، وإن كانوا سالمين ، أى سلمكم الله ، فهو خبر معناه الدعاء [1] .

ومن آثار رحمته لهم أيضا قوله تعالى : ﴿ **وأعد لهم أجراً كريما** ﴾ أعد لهم فى الجنة رزقاً حسناً ما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم .

قال الفخر الرازى [2] : ولو قال قائل الإعداد إنما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة إلى الشئ عليه ، وأما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فحيث يلقاه الله يؤتيه ما يرضى به وزيادة . فما معنى الإعداد من قبل .

فنقول : الإعداد للإكرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك إذا قيل له فلان واصل ، فإذا أراد إكرامه يهئ له بيتاً وأنواعاً من الإكرام ، ولا يقول بأنه إذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه ما يرضيه . فكذلك الله لكمال الإكرام أعد للذاكر أجراً كريماً يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فإنه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه إلا بقدر .

---

(٣) تفسير القرطبى ٩ / ٢٠٥ .

(٤) فى التفسير الكبير ٢٥ / ٢١٦ .

صفات رسول الله ﷺ ونهيه عن مداراة الكفار في أمر الدعوة ولين الجانب فى التبليغ

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(٤٥)وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا(٤٦)وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا(٤٧)وَلاَ تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً(٤٨) ﴾

علاقة الآيات بما قبلها :

افتتحت السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿ يأيهل النبى . . . الآيات ﴾ وفيها إشارة على ما ينبغى أن يكون عليه الرسول ﷺ مع ربه ، فناداه بأوصاف أودعها سبحانه فيه للتنويه بشأنه وزيادة رفعة قدره . وقد قال تعالى من قبل ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك . . . الآيات** ﴾ إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله . وفى قوله تعالى : ﴿ **يأيها النبى إنا أرسلناك . . . الآيات** ﴾ إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع عامة الخلق .

وقوله تعالى ﴿ **شاهداً** ﴾ أى : " على الخلق يوم القيامة يشهد لمن صدقه وآمن به ، وعلى من كذبه وكفر به كما قال تعالى : ﴿ **ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ (١) . وقال مجاهد : شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم " (٢) .

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٤٣ .

(٢) فتح القدير للشوكانى ٤ / ٢٨٨ .

وقال ابن كثير : " أى شاهدا لله بالوحدانية ، وأن لا إلـــه غـــيره ، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وجئنا بـــك على هؤلاء شهيدا** ﴾ (١) " (٢)

قلت : ولا مانع أن تكون هذه الصفة تشمل كل هذه المعـــانى ، فهو ﷺ شاهد لله بالوحدانية والألوهية ، وشاهد على سائر الأمم بتبليـــغ أنبيائهم إليهم .

قوله تعالى : ﴿ **ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه** ﴾ فيه ترتيـب حسن وذلك من حيث أن النبى ﷺ أرسل شاهداً بقولـــه لاإلـــه إلا الله ، ويرغب فى ذلك بالبشارة للمؤمنين برحمة الله وما أعده لـــهم مـــن جزيل الثواب وعظيم الأجر ، فإن لم يكف يرهب بالإنذار للكـافرين والعصاة بالنار ، وبما أعده لهم من عظيم العقاب . ثـــم لا يكتفـــى بقولهم لا إله إلا الله ، بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعـــالى : ﴿ **أدع إلى سبيل ربك** ﴾ ، وقيدت الدعوة بالإذن ، إيذانا بأنها أمـــر صعب المنال وخطب فى غاية الإعضال لا يتأتى إلا بـــإمداد مـــن جناب قدسه تعالى " (٣) .

قوله : ﴿ **وسراجاً منيرا** ﴾ أى : الذى يستضئ به الضـــالون فـــى ظلمات الجهل والغواية ويقتبص من نوره أنوار المهتدين إلـــى منـــاهج

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٤٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٨/٣ .

(٣) روح المعانى للألوسى ٤٦/٢٢ .

الرشد والهداية . كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به ، ووصفه بالإنارة ، لأن من السراج ما لا يضئ إذا قل سليطه ودقت فتيلته .

وإن قيل : كيف شبه الله نبيه بالسراج دون الشمس مع أنها أتم ؟

فالجواب : أن المراد بالسراج هنا الشمس كما قال الله تعالى : ﴿ **وجعل الشمس سراجا** ﴾ أو شبهه بالسراج لأنه تفرع منه بهدايته جميع العلماء كما يتفرع من السراج سُرج لا تحصى بخلاف الشمس [1] .

وقال الزجاج : ﴿ **سراجا** ﴾ معطوف على (شاهدا) بتقدير مضاف أى : ذا سراج منير ، وقال الفراء : إن شئت كان نصبا على معنى : وتالياً سراجاً منيرا ، وعليهما يكون المراد بالسراج المنير القرآن ، وإذا فسر بذلك احتمل على ما قيل أن يعطف على كاف ﴿ أرسلناك ﴾ على معنى أرسلناك والقرآن [2] .

قوله تعالى : ﴿ **وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا** ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل : فراقب أحوال الناس ، وبشر المؤمنين بأن لهم فضلا كبيراعلى سائر الأمم فى الرتبة والشرف .

سبب نزول الآية :

أخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن البصرى قالا : لما نزلت : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ [3]

---

(١) الفتوحات الإلهية ٣ / ٤٤٣ .

(٢) روح المعانى للألوسى ٢٢ / ٤٦ .

(٣) سورة الفتح من الآية ٢ .

قال رجال من المؤمنين : هنيئا لك يارسول الله ، قد علمنا ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله ﴿ **وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا** ﴾ [1] .

ولما أمره الله بما يُسُّره نهاه عما يضره فقال : ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع آذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ أى : ولا تطع قول كافر ولا منافق فى أمر الدعوة ، وألن الجانب فى التبليغ ، وارفق فى الإنذار ، واصفح عن أذاهم ، واصبر على ما ينالك منهم ، وفوض أمورك إلى الله ، وثق به فإنه كافيك جميع مَن دونك ، حتى يأتيك أمره وقضاؤه ، وهو حسبك فى جميع أمورك .

والتوكل على الله صفة أساسية فى المؤمنين ، ولا يتم الإيمان إلا بها ، بل هى صفة أوجبها الله تعالى على المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾[2] ، وقال جل ذكره : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ [3]

روى الترمذى بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتعود بطاناً " [4] ، وأن

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١٧٦ .

(٢) سورة ابراهيم من الآية ١١ .

(٣) سورة الطلاق الآية ٣ .

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب الذهد . باب التوكل على الله ٤ / ٥٧٣ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

التوكل على الله يقتضى أن يقول المؤمن المتوكل عندما يصيبه هم أو أذى : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فينجيه الله من كل ضيق وأذى .

وروى **البخارى** بسنده عن ابن عباس ﷺ قال : حسبنا الله ونعم الوكيل : قالها ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١) .

والجملة معطوفة على ما تقدم ، ولا : ناهية ، وتطع : فعل مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت ، والكافرين : مفعول به ، والمنافقين : عطف على الكافرين ، ودع أذاهم : فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به من باب إضافة المصدر إلى فاعله أو مفعوله . فيكون المعنى على الأول دع أذيتهم إياك من غير مجازاة ، وعلى الثانى دع ما آذوك ولا تؤاخذهم حتى تؤمر بذلك ، وقد جاء الأمر بعد ذلك بالقتال .

قوله : ﴿ **وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ . عطف على ما تقدم وعلى الله : جار ومجرور متعلقان بتوكل ، وكفى : فعل ماض والباء زائدة ، والله : فاعل كفى محلا ، ووكيلا : تمييز .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير ٩ / ٢٩٧ من الفتح .

أحكام تتعلق بالنكاح قبل الدخول

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً(٤٩) ﴾

علاقة الآية بما قبلها :

لما ذكر سبحانه قصة زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش ثم تطليقه إياها ، وكانت مدخولا بها ، وزواج النبى ﷺ منها بعد انقضاء عدتها ، خاطب الله تعالى المؤمنين بحكم الزوجة التى تطلق قبل الدخول .

ففى هذه الآية بين سبحانه أن المطلقة إذا لم تكن ممسوسة لا عدة عليها أما المدخول بها فعليها العدة .

قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات** ﴾

النكاح فى اللغة : الضم والجمع .

وفى الشرع : عبارة عن ضم وجمع مخصوص وهو الوطء ، لأن الزوجين حالة الوطء يجتمعان وينضم كل واحد إلى صاحبه حتى يصيروا كالشخص الواحد .

قال ابن حجر : " هو حقيقة فى العقد ، مجاز فى الوطء على الصحيح ، والحجة فى ذلك كثرة وروده فى الكتاب والسنة للعقد حتى قيل : إنه لم يرد فى القرآن إلا للعقد ، ولا يرد مثل قوله : ﴿ **حتى**

تنكح زوجا غيره ﴾ [1] لأن شرط الوطء فى التحليل إنما ثبت بالســنة وإلا فالعقد لابد منه ، لأن قوله ﴿ **حتى تنكح** ﴾ معناه حتى تـتزوج أى يعقد عليها ، ومفهومه أن ذلك كاف بمجرده ، لكن بينـت السـنة أن لا عبرة بمفهوم الغاية ، بل لابد بعد العقد من ذوق العسيلة كما أنه لابد بعد ذلك من التطليق ثم العدة . نعم أفاد ابن فارس أن النكاح لم يـرد فـى القرآن إلا للتزويج إلا فى قوله تعالى : ﴿ **وابتلوا اليتـامى حتـى إذا بلغوا النكاح** ﴾ [2] فإن المراد به الحلم والله أعلم " [3] .

وقد يستعمل فى العقد مجازا ، لما أنه يؤول إلى الضـم ، وفـى الوطء حقيقة ، فمتى أطلق النكاح فى الشرع يراد به الوطء ، لقولـه ﷺ " ولدت من نكاح " أى : من وطء حلال ، وقوله " يحل للرجـل مـن امرأته الحائض كل شئ إلا النكاح " أى الوطء .

وقد يفهم منه العقد بقرينة ، مثل قوله تعالى : ﴿ **فانكحوا ما طـاب لكم من النساء ...** ﴾ الآية ، لأن العقد هو الذى يختص بـالعدد دون الوطء ، وكذا قوله ﷺ : " لا نكاح إلا بشهود " لأن الشهود لا يكونـون على الوطء ، ولأنهما حالة العقد مفترقان ، وإنما يطلق عليـه النكـاح لإفضائه إلى الضم ، وهذا هو الذى يترجح فى نظرى . والدليل علـى أن النكاح لا يعنى الوطء قوله تعالى : ﴿ **من قبل أن تمسوهن** ﴾ .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٣٠ .

(٢) سورة النساء الآية ٦ .

(٣) فتح البارى ١١ / ٣ .

قوله : ﴿ **ثم طلقتموهن** ﴾ ٠

الطلاق فى اللغة : هو إزالة القيد والتخلية ، فالطالق من الإبل : أى التى طلقت فى المرعى ، وقيل : هى التى لا قيد عليها [١]

وفى الشرع : إزالة النكاح الذى هو قيد معنى ٠ قال ابن منظور : " وطلاق النساء لمعنيين :

أحدهما : حل عقدة النكاح ٠

والآخر : بمعنى التخلية والإرسال " [٢] ٠

وقد عرفه فقهاء الحنفية " بأنه رفع القيد الثابت بالنكاح فى الحال أو المآل بلفظ مخصوص " [٣] ٠

وعرفه فقهاء المالكية : " بأنه إزالة عصمة الزوجة بصريح لفظ أو كناية ظاهرة أو بلفظ ما مع نية " [٤] ٠

وقال الشافعية : " الطلاق حل عقدة النكاح بلفظ الطلاق ونحوه " [٥] وبه قال الحنابلة [٦] ٠

ومن هذه التعريفات نقول : " الطلاق هو حل رباط الزوجية الصحيحة فى الحال أو المآل بعبارة تفيد ذلك صراحة أو دلالة تقصد معناه ٠

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٠ / ٢٢٦ ٠

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ٠

(٣) بدائع الصنائع للكاسانى ٣ / ٢٩٧ ٠

(٤) حاشية الدسوقى على الشرح الكبير ٢/٣٤٧ ٠

(٥) مغنى المحتاج للشربينى ٣ / ٢٧٩ ٠

(٦) المغنى لابن قدامة ٨ / ٢٣٣ ٠

وقوله : ﴿ **من قبل أن تمسوهن** ﴾ المس : الوطء ، والمراد به قربان المرأة ، ومن أدب القرآن الكريم التعبير عنه بالملامسة والمماسة ، والقربان ،

وقوله عز وجل: ﴿ **فما لكم عليهن من عدة تعتدونها** ﴾ العدة : الشئ المعدود • وعدة المرأة : الأيام التى بانقضائها يحل بها التزوج •

وقد أجمع العلماء على أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها ــ وهى المدة التى يتأكد بها خلو رحمها من زوجها الأول ــ فتذهب وتتزوج من شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد أربعة اشهر وعشراً وإن لم يكن دخل بها بالإجماع .

وقوله تعالى : ﴿ **فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا** ﴾ المتعة : عطاء للمرأة التى تطلق قبل الدخول •

والمتعة هنا : أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها ، قال الله تعالى : ﴿ **وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم** ﴾ (١) ، وقال عز وجل : ﴿ **لا جناح علكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٦ .

وفى صحيح البخارى [1] عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ تزوج (أميمة بنت شراحيل) فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها بثوبين رازقيين [2] . **قال على بن أبى طلحة** : إن كان سمى لها صداقا فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقا أمتعها على قدر عسره ويسره وهو السراح الجميل [3] .

وإن طلقت بعد الدخول فلها كل المهر .

وقد اختلف السلف والخلف فى بيان حكم المتعة فمنهم من أوجبها على الإطلاق ، ومنهم من جعلها على الاستحباب ، ومنهم من فرق بين المدخول بها وغير المدخول بها ، وبين المسمى لها مهر وغير المسمى لها .

والذى نرجحه ونختاره هو وجوبها فى كل الأحوال لعموم الآيات الكريمة فى ذلك ، ومن باب المعاشرة بالمعروف والمفارقة بالإحسان ، قال تعالى : ﴿ **فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا** ﴾

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الطلاق . باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق ١١ / ٢٧٥ . من الفتح .

(2) نوع من الثياب مشهور فى ذلك الحين .

(3) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٧٩ .

بعض خصائص النبى ﷺ فى الزواج

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا(٥١)لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا(٥٢) ﴾ .

معانى المفردات :

الأجور : المهور ، وما ملكت يمينك : أى ما أخذته من المغانم ، خالصة لك : أى هى خاصة بك ، حرج : أى ضيق ومشقة .

يقول تعالى مخاطبا نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتى أعطاهن مهورهن فقال تعالى : **﴿ يا أيها النبي إنا احللنا لك**

أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ﴾ وقد كان مهره ﷺ لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونصفاً أى خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي ــ رحمه الله ــ أربعمائة دينار .

وقد اختلف العلماء فى تأويل قوله تعالى : **﴿ إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى أتيت أجورهن ﴾** هل الإحلال على إطلاقه ، فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ماعدا ذوات المحارم ؟ أم مقيدة بمن عنده من الأزواج ، فيكون ذلك اقرارا بحلهن جميعا رغم زيادتهن عن أربع ؟

فقال ابن زيد والضحاك : " إن الله أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها ، فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ما عدا ذوات المحارم .

وقال الجمهور : المراد أحللنا لك أزواجك الكائنات عندك لأنهن قد اخترنك على الدنيا وزينتها . وهذا هو الظاهر عند الشوكانى " [(١)] .وقد استدل ابن جرير الطبرى على رأى الجمهور بما ورد عن ابن عباس قال : " حرم الله عليه ما سوى ذلك من النساء وكان قبل ذلك ينكح فى أى النساء شاء لم يحرم ذلك عليه فكان نساؤه يجدن من ذلك وجدا شديدا أن ينكح فى أى النساء أحب فلما أنزل الله إنى قد حرمت عليك من الناس سوى ما قصصت عليك أعجب ذلك نساءه " [(٢)] .

وأرى أن **رأى الجمهور هو الصواب** ، لأن قوله تعالى **﴿ أحللنا ﴾** و**﴿ آتيت ﴾** ماضيان . كذلك قوله تعالى : **﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ﴾** لأنه لو أراد أحللنا لك كل امرأة تزوجت وآتيت أجرها ، لما قال بعد ذلك **﴿ وبنات عمك وبنات عماتك ﴾** لأن ذلك داخل فيمل تقدم . **والله أعلم .**

---

(١) فتح القدير ٤ / ٢٩١ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٢ / ١٧ .

ثم قال تعالى : ﴿ **وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك** ﴾ أى : أحل الله تعالى السرارى لنبيه ﷺ مما افاء الله عليه ، أى : أعطاه من الفئ وهو ما ناله المسلمون من أعدائهم بغير قتال أو مما أهدى إلى النبى ﷺ مثل مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام ، التى أهديت إليه من مقوقس مصر .

وقد ملك صفية بنت حيى بن أحطب فى سبى خيبر ، ثم أعتقها ، وجعل صداقها عتقها ، وجويرية بنت الحارث من بنى المصطلق أعتقها ، ثم تزوجها ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية .

قوله تعالى : ﴿ **وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك** ﴾ . أى : أحللنا لك بنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك المهاجرات معك دون من لم يهاجرن .

روى السُّدّى عن أبى صالح عن أم هانئ قالت : " خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه ، فعذرنى ؛ ثم أنزل الله تعالى : ﴿ **إنا أحللنا لك أزواجك .. إلى قوله اللاتى هاجرن معك** ﴾ قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن ممن هاجرن معه ، كنت من الطلقاء [1]" [2].

وعن سر إفراد الذكور " عمك " و " خالك " وجمع الإناث " عماتك " و " خالاتك "

---

(١) الطلقاء : جمع طليق وهم الذين أسلموا يوم الفتح .

(٢)أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب تفسير القرآن ٥ / ٣٥٥ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح لا أعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدى .

وعن سر إفراد الذكور " عمك " و " خـالك " وجمـع الإنـاث " عماتك " و " خالاتك " .

حكى القرطبى عن القاضى أبى بكر بن العربى قـال : " وذكـر الله ــ تبارك وتعالى ــ العم فردا والعمات جمعا " . وكذلك قـال : (خـالك) و (خالاتك) **والحكمة فى ذلك :** أن العم والخال فـى الإطـلاق اسـم جنـس كالشاعر والراجز ، وليس كذلك العمة والخالة . وهذا عُرْف لغوى ، فجـاء الكلام عنه بغاية البيان لرفع الإشكال ، وهذا دقيق فتأملوه " (١) .

وقوله تعالى : ﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبـى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾ . أى : ويحل لك أيها النبـى المرأة المؤمنة ،إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلـك . فقوله ﴿ **وهبت نفسها** ﴾ أى : ملكته المتعة بها بأى عبارة كانت بلا مهر .

عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ جاءته امرآة فقالت : يا رسول الله إنى قد وهبت نفسى لك ، فقامت قياما طويلا ، فقام رجـل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة فقال رسـول الله ﷺ " هل عندك من شئ تصدقها إياه ؟" فقال : ما عندى إلا إزارى هذا ، فقال رسول الله ﷺ : " إن أعطيتها إزارك جلسـت لا إزار لـك فالتمس شيئا " فقال : لا أجد شيئا ، فقال : " التمس ولو خاتما من حديـد " فالتمس فلم يجد شيئا ، فقال له النبى ﷺ : " هل معك من القرآن شـئ ؟ " قال نعم سورة كذا وسورة كذا ــ السور يسميها ــ فقال له النبى ﷺ : " زوجتكها بما معك من القرآن " . (٢) .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٣٤ .

(٢) اخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب النكاح ١١ / ١١٠ ــ١١٤ من الفتح .

وعن هشام عن أبيه قال : كانت خولة بنت حكيم من الائى وهبن أنفسهن للنبى ﷺ فقالت عائشة : أما تستحى المرأة أن تهب نفسها للرجل ؟ فلما نزلت ﴿ **ترجى من تشاء منهن** ﴾ قلت يارسول الله ، ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك [1] .

وفى رواية أخرى عن السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : " كنت أغار على الاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى ﴿ **ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك** ﴾ قلت : ما أرَى ربك إلا يسارع فى هواك " [2] .

وقد اختلف فى اسم الواهبة نفسها ، فقيل : هى أم شريك الأنصارية ، إسمها غزية ويقال غُزَيلة ، وقيل : ليلى بنت حكيم . وقيل : هى ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبى ﷺ فجاءها الخاطب وهى على بعيرها فقالت البعير وما عليه لرسول الله ﷺ وقيل : هى أم شريك العامرية .. .. والله تعالى أعلم [3] .

وروى القرطبى عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : " لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له " [4] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب النكاح ١١ /٦٨ من الفتح .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير ١٠ / ١٤٤ ــ ١٤٥ من الفتح .

(٣) تفسير القرطبى ١٤ / ١٣٥ .

(٤) تفسير القرطبى ٢٢ / ١٧ .

قال ابن كثير : أى : أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان ذلك مباحا له ومخصوصا به ؛ لأنه مردود إلى مشيئته كما قال الله تعالى : ﴿ **إن أراد النبى أن يستنكحها** ﴾ أى : إن اختار ذلك " [١] .

وقوله : ﴿ **للنبى** ﴾ إظهار فى موضع الإضمار ؛ لأن مقتضى الظاهر أن يقال : إن وهبت نفسها لك ، والغرض من هذا الإظهار ما فى لفظ " النبى " من تزكية فعل المرأة التى تهب نفسها بأنها راغبة لكرامة النبوة .

وقوله تعالى : ﴿ **خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾ أى : هبة النساء أنفسهن خالصة ومزية لرسول الله ﷺ . قال عكرمة : أى لا تحل الموهوبة لغيرك ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل فلا تحل له حتى يعطيها شيئاً ، أى إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها ، ولهذا قال قتادة فى قوله : ﴿ **خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾ . يقول : ليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنبى ﷺ [٢] فله أن يتزوج بغير صداق ولا ولى ولا شهود .

واختلف فى إعراب قوله ﴿ خالصة لك ﴾ .

قيل : مصدر مؤكد لفعل محذوف أى خلصت لك خالصة وقد ورد المصدر على هذه الزنة كالعاقبة والكاذبة ، وفاعل المصدر مستتر تقديره النكاح بلفظ الهبة ، وعلى هذا الوجه اقتصر الزمخشرى .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٨١ .

واختار **الزجاج وأبو البقاء** أن تكون حالا من ﴿ امرآة ﴾ لتخصصها بالوصف ، أى أحللناها خالصة لك ، لا تحل لأحد غيرك . ولا يبعد أن تكون نعت مصدر مقدر أى هبة خالصة ، ولك : جار ومجرور متعلقان بخالصة ، ومن دون المؤمنين : حال .

وقوله تعالى : ﴿ **قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم** ﴾ فمعناه أن ما ذكرناه خاص بك مع أزواجك . أما حكم أمتك فعندنا علمه ونبينه لهم ، وإنما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبى ﷺ فإن له فى النكاح خصائص ليست لغيره وكذلك فى السرارى .

أما بالنسبة للمؤمنين مع أزواجهم فقد حصرهم فى أربع نسوة حرائر ، وما شاءوا من الإماء ، واشتراط الولى والمهر والشهود عليهم ، وأنه لا تحل امرأة لهم بلفظ الهبة .

وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها و" قد " حرف تحقيق ، وعلمنا : فعل وفاعل ، وما : مفعول علمنا . وجملة فرضنا : صلة ، وعليهم : جار ومجرور متعلقان بفرضنا ، وفى أزواجهم : حال ، وما : عطف على أزواجهم ، وجملة ما ملكت أيمانهم : صلة .

وقوله تعالى : ﴿ **لكيلا يكون عليك حرج** ﴾ تعليل لما شرعه الله تعالى فى حق نبيه ﷺ من التوسعة بالازدياد فى عدد الأزواج ، فقد بين الله تعالى العلة فى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بما تقدم من الأحكام . والمعنى : أحللنا لك ذلك حتى لا يكون عليك حرج وضيق فى نكاح من نكحت من الأصناف السالفة .

ثم ذيل سبحانه الآية بقوله : ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ أى كثير المغفرة فيغفر ما يشاء مما يعسر التحرز عنه وغيره ، ورحيما أى وافر الرحمة ، ومن رحمته سبحانه أن وسع الأمر فى مواقع الحرج .

تخييره ﷺ فى مضاجعة من شاء من نسائه :

قال تعالى :﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا(٥١)﴾ .

معانى المفردات :

﴿ **ترجى من تشاء منهن** ﴾ : أى : تؤخر مضاجعة من تشاء من نسائك والإرجاء هو التأخير ، وقرئ ، ترجئ .

﴿ **وتؤوى إليك من تشاء** ﴾ : أى تضم وتضاجع من تشاء .

والمعنى : لا يجب عليه ﷺ قسْم بين زوجاته ، بل الأمر فى ذلك مفوَّض إليه . ومع هذا كان النبى ﷺ يقسم لهن .

وقوله : ﴿ **ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك** ﴾ أى : ومن دعوت إلى فراشك وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك ، فلا ضيق عليك فى ذلك .

قوله أدنى : أقرب ، تقرَّ : أى تسر . **روى ابن جرير الطبرى** [١] بإسناده عن ابن رزين قال : لما نزلت آية التخيير [٢] أشفقن أن يطلقن

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢ / ١٨ .

(٢) وهى قوله تعالى **﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . . . . ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فإن الله أعد للمحسنات أجرا عظيما ﴾** .

قلن يا نبى الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت فكان ممن أرجأ منهن سودة بنت زمعة وجويرية وصفية وأم حبيبة وميمونة وكان ممـــن آوى إليه عائشة وأم سلمة وحفصة وزينب .

وروى **هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة** فى قولـــه تعــالى : **﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾** قـــالت هــذا فـــى الواهبات أنفسهن .

وقال الزهرى : ما علمنا أن رسول الله ﷺ أرجأ أحدا من أزواجــه بل آواهن كلهن .

وقال ابن عباس وغيره : المعنى فى طلاق من شاء ممن حصـــل فى عصمته ، وإمساك من شاء ، وقيل غير هذا [1] .

ويمكن أن يقال : إن ضمير " منهن " فى قوله : **﴿ ترجى مـــن تشاء منهن ٠٠٠ ﴾** عائد على النساء المذكورات ممن هـــن فـــى عصمته ، وما ملكت يمينه ، ومن أحل الله له نكاحهن مـــن بنـــات عمه وعماته وخاله وخالاته ، والواهبات أنفسهن ، فتلـــك أربعـــة أصناف :

الصنف الأول : وهن اللائى فى عصمته ﷺ ، فإرجاء هذا الصنف ينصرف إلى تأخير الاستمتاع بهن إلى وقت مستقبلى يريده ، بأن أبـــاح له أن يسقط حق بعض نسائه فى المبيت معهن ، فصار حق المبيت حقا له لا لهن ، بخلاف بقية المسلمين ٠

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٣٨ ــ ١٣٩ .

والصنف الثانى : وهن ما ملكت يمينه ، إذا لا يجب عدل في المعاشرة والمبيت .

أما الصنف الثالث : فهن بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته ، فالإرجاء : تأخير تزوج من يحل منهن ، والإيواء : العقد على إحداهن .

وكذلك الصنف الرابع : وهن اللائى وهبن أنفسهن ، فإرجاؤهن عدم قبول نكاح الواهبة ، وعبر عنه بالإرجاء ، إبقاء على أملها أن يقبلها في المستقبل ، وبالإيواء علي قبوا هبتهن .

وهذا التخيير وهو الإرجاء أو الإيواء لا يوجب استمراره في حقه ﷺ إذا أخذ بأحدهما ولهذا قال سبحانه : ﴿ **ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك** ﴾ .

والمعنى : فإن عزلت بإرجاء إخداهن فليس العزل بواجب استمراره ، بل لك أن تعيدها إن ابتغيت العود إليها . فلا يكون العزل لازم الدوام بمنزلة الظهار والإيلاء .

وعلى كل فالآية معناها التوسعة على رسول الله ﷺ والإباحة والحرية فى القسم بين زوجاته ، فيبيت عند من يشاء ، ويؤجل منهن من يشاء ، فالقسم بين زوجاته ليس واجبا عليه ، ومع ذلك كان النبى ﷺ يقسم بينهن من قبل نفسه تطييبا لنفوسهن وصونا لهن عن الغيرة التى تؤدى إلى ما لا ينبغى .

أما غير النبى ﷺ فالقسم بين النساء واجب فى حق من يتزوج بأكثر من واحدة لقوله تعالى : ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾ (١)

والعدل هاهنا إنما يكون فى النفقة والمبيت ونحوه كالمسكن والمطعم والكسوة ٠

قال القرطبى : " على الرجل أن يعدل بين نسائه ، لكل واحدة منهن يوما وليلة ، هذا قول عامة العلماء ، وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك فى الليل دون النهار ، ولا يُسقط حق الزوجة مرضها ولا حيضها ، ويلزمه المقام عندها فى يومها وليلتها ، وعليه أن يعدل بينهن فى مرضه كما يفعل فى صحته إلا أن يعجز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض ، فإذا صح استأنف القسم ، والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات فى ذلك سواء ٠٠٠

ولا يجمع بينهن فى منزل واحد إلا برضاهن ولا يدخل لإحداهن فى يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة ، واختلف فى دخوله لحاجة وضرورة ؛ فالأكثرون على جوازه ؛ مالك وغيره " (٢)

أما الحب والبغض فخارجان عن القسم فلا يتأتى العدل فيهما ، وهذا ما أشار إليه حديث الرسول ﷺ " اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك " ٠

ثم بين سبحانه السبب فى الإيواء والإرجاء ، وأنه كان فى مصلحتهن فقال : ﴿ **ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما**

---

(١) سورة النساء الآية ٣ ٠

(٢) تفسير القرطبى ١٤ / ١٣٩ ـ ١٤٠ ٠

آتيتهن كلهن ﴾ أى : إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج فى القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم لا جناح عليك فى أى ذلك فعلت ، وأنت مع هذا تقسم لهن اختياراً منك لا وجوباً عليك ـ فرحن بذلك ، واسبشرن به واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لهن ، وتسويتك بينهن ، وانصافك لهن ، وعدلك بينهن .

ثم قال تعالى : ﴿ **والله يعلم ما فى قلوبكم** ﴾ خطاب له ﷺ ولأزواجه المطهرات على سبيل التغليب .

والمراد بما فى القلوب عام ويدخل فيه :

* ما يكون قلوبهن من الرضا بما دبر الله تعالى فى حقهن من تفويض الأمر إليه ﷺ .
* وما فى قلبه الشريف ﷺ من الميل إلى بعضهم دون بعض . فعن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته فقلت : أى الناس أحب إليك ؟ فقال (عائشة) فقلت : من الرجال ؟ قال : أبوها [1] .

وروى الأمام أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك . يعنى القلب وزيادة الحب لبعض دون بعض .

فالقلب محل الحب والكراهية ، وإذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ، قال القرطبى : " يروى أن لقمان الحكيم كان عبدا

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب المناقب ٥ / ٧٠٦ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

نجارا قال له سيده : اذبح شاة وائتنى بأطيبها بَضْعتين ، فأتاه باللسان والقلب ، ثم أمره بذبح شاة أخرى فقال له : ألق أخبثها بَضْعتين ، فألقى اللسان والقلب ، فقال : أمرتك أن تأتينى بأطيبها بَضْعتين فأتيتنى باللسان والقلب ، وأمرتك أن تُلقى بأخبثها بضعتين فألقيت اللسان والقلب ! ؟ فقال : ليس شئ أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا " (١)

وقوله : ﴿ وكان الله عليماً حليما ﴾ أى مبالغا فى العلم فيعلم كل ما يبدى ويخفى ، وحليما فيصفح عما يغلب على القلب من الميول ونحوها .

- مجازاة نساء النبى ﷺ على حسن صنيعهن فى اختيارهن الله ورسوله

قال تعالى : ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا(٥٢)** ﴾

هذه الآية مجازاة لأزواج النبى ﷺ على حسن صنيعهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا(٢٨)وَإِنْ**

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٤٠ ــ ١٤١ .

كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْـرًا عَظِيمًا(٢٩) ﴾ (١) .

فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ، **وإلى ذلك أشار بقوله :**

١ ــ ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد** ﴾ أى لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتى فى عصمتك اليوم نظير اختيارهن الله ورسوله وحسن صنيعهن فى ذلك .

أخرج أبو داود وابن مردوية والبيهقى فى سننه عن أنس قال : " لما خيرهن فاخترن الله ورسوله ﷺ قصره سبحانه عليهن " .

٢ ــ ﴿ **ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك** ﴾ أى ولا يحل لك أن تستبدل بهن أزواجاً غيرهن ، بأن تطلق واحدة منهن وتنكح بدلها أخرى مهما كانت بارعة فى الحسب والجمال إلا ما ملكت يمينك منهن ، وقد ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس فتسراها وأنجب منها ابراهيم الذى مات رضيعاً .

وفى الآية دليل جواز النظر إلى من يريد زواجها ، يؤخذ من قوله تعالى : ﴿ **ولو أعجبك حسنهن** ﴾ ، وقد روى أبو داود(٢) بسنده عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : " إذا خطب أحدكم

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) فى سننه كتاب النكاح ٢ /٢٢٨ ــ ٢٢٩ .

المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه لنكاحها فليفعل " (قال) فخطبت جارية فكنت أتخبألها ، حتى رأيت منها ما دعانى لنكاحها فتزوجتها .

وعن المغيرة بن شعبة ، أنه خطب امرأة فقال النبى ﷺ : انظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما "[١] .

ثم ختم سبحانه الآية بقوله : ﴿ **وكان الله على كل شئ رقيبا** ﴾ أى : وكان الله حافظاً ومطلعاً على كل شئ ، عليما بالسر والنجوى ، فاحذروا تجاوز حدوده ، وتخطى حلاله إلى حرامه .

وقوله : ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج** ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان ما يحل له ، ولا : نافية ، ويحل : فعل مضارع مرفوع ، ولك : متعلقان بيحل ، والنساء : فاعل ، ومن بعد : حال ، وبنى " **بعد** " على الضم لقطعه على الإضافة لفظاً لا معنى ، والمعنى من بعد التسع المجتمعات فى عصمتك وهى نصابه كما أن الأربع نصاب أمته ، والواو عاطفة ، ولا : نافية ، وأن تبدل : مصدر مؤول معطوف على النساء ونائب الفاعل تبدل مستتر تقديره أنت ، وبهن : متعلقان بتبدل ، ومن : حرف جر زائد ، وأزواج :

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب النكاح . باب ما جاء فى النظر إلى المخطوبة ٣ / ٣٨٨ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . وقد ذهب بعض أهل العلم إلى هذا الحديث ، وقالوا : لا بأس أن ينظر إليها مالم ير منها محرما .

ومعنى قوله : " أحرى أن يؤدم بينكما " أى أحرى أن تدوم المودة بينكما .

مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به ، قال ابن زيـد : هـذا شئ كانت العرب تفعله يقول أحدهم : خذ زوجتى وأعطنى زوجتك .

قوله : ﴿ **ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله علـى كل شئ رقيبا** ﴾ الواو : للحال ، والجملة حالية من الضمير فى تبدل أى مفروضاً اعجابك بهن ، ولو : شرطية ، وأعجبـك حسـنهن : فعـل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر .

وقوله : ﴿ **ولو أعجبك حسنهن** ﴾ وارد مورد الإلهاب والإثـارة حتى تندفع النفس نحو أمر الله ، وفيها إشارة مـن إشـارات القـرآن الكثيرة التى تشير إلى بشريته ﷺ ، وأنه واحد من المربوبيـن لله ، وإن تزكت نفسه وتخلفت بخلق القرآن ، كل ذلك لا ينزعها من أصلـها البشرى وإلا لما كان له ﷺ فضل فى مجاهدة النفس الذى سماه الجـهاد الأكبر .

كلمة عن تعدد أزواج النبى ﷺ

ذكر سبحانه فى هذه السورة الكثير من الشئون الزوجية وكيف تعامل الزوجات ، وقد رأينا أن نذكر هنا مسألتين كثر الخوض فيها من أرباب الأديان الأخرى ومن بعض المسلمين الذين تعلموا فى مدارسهم وسمعوا كلام المبشرين ، ظنا منهم أنهم وجدوا مغمزا فى الإسلام وأصابوا هدفا يجعل معتنقيه مضغة فى أفواه المسلمين . ومن هذه المطاعن ما يلى :

١ ــ تعدد زوجاته ﷺ وكثرتهن بينما لم يبح مثل ذلك لأمته .

٢ ــ إباحة تعدد الزوجات لعامة المسلمين .

ومن ثم وجب علينا أن نميط اللثام عن الأسباب التى دعت إلى كل منها .

المسألة الأولى : أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذه المسألة نذكر أن النبى ﷺ عاش مع خديجة ــ رضى الله عنها ــ خمسا وعشرين سنة لم يتزوج سواها ، وكانت سنه إذ ذاك ناهزت الخمسين ، وكان قد تزوجها فى شرخ شبابه ، إذ كان سنه وقتئذ خمسا وعشرين سنة وكانت سنها أربعين وعاشا معا عيشا هنيئا شعاره الإخلاص والوفاء ، وكانت من أكبر أنصاره على الكفار الذين سخروا منه وألحقوا به ضروبا شتى من الأذى ، ولم يشأ أن يتزوج غيرها مع ما كان يبيحه له عرف قومه ، بل

ظل وفيا لها حتى توفيت ، فحزن عليها حزنا شديدا وسمى عام وفاتها عام الحزن ، ولم ينقطع عن ذكراها طوال حياته .

والأن حق علنا أن نذكر الأسباب التى هدت النبى ﷺ إلى التعدد وهى قسمان : أساب عامة وأسباب خاصة .

الأسباب العامة

١ – إن رسالة النبى ﷺ عامة للرجال والنساء ومن التشريع ما هو مشترك بين الرجل والمرأة وما هو خاص بأحدهما ، وكل يحتاج فى تلقينه إلى عدد ليس بالقليل لتفرق المرسل إليهم وقصر زمن حياة الرسول ، وكثرة الأحكام ، وإلا لم يحصل التبليغ على الوجه الأكمل .

ومن الأحكام المتعلقة بالنساء ما تستحى المرأة أن تعرفه من الرجل ويستحى الرجل من تبليغه للمرأة ، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن عائشة – رضى الله عنها – أن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت للنبى ﷺ : كيف أغتسل من الحيض ؟ قال : خذى فرصة مَمسّكة (قطعة قطن) وتوضئى ثلاثا ، ثم أعرض عنها النبى ﷺ بوجهه استحياء ، فأخذتها عائشة واخبرتها بما يريد النبى ﷺ . [١]

ومن ثم وجب أن يتلقى الأحكام الخاصة بالنساء من الرسول ﷺ عدد كثير منهن ، وهن يبلغن ذلك إلى النساء ، ولا يصلح للتلقى عنه إلا

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه – كتاب الحيض ، باب غسل المحيض ١ / ٤٣٢ فتح البارى ،

أزواجه ، لأنهن لهن خصائص تمكنهن من معرفة أغراض النبى دون تأفف ولا استحياء ، يرشد إلى ذلك قوله ﷺ : " خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء " يريد عائشة ــ رضى الله عنها ــ ، والعرب تقول امرأة حمراء أى بيضاء .

٢ ــ إن المصاهرة من أقوى عوامل التآلف والتناصر كما هو مشاهد معروف ، والدعوة فى أول أمرها كانت فى حاجة ماسة إلى الإكثار من ذلك ، لاجتذاب القبائل إليه ومؤازرتهم له ، لذَود عوادى الضالين ، وكف أذاهم ، ومن ثم كان أكثر زوجاته من قريش سيدة العرب .

٣ ــ إن المؤمنين كانوا يرون أن أعظم شرف وأمتن قربة إلى الله تعالى مصاهرتهم لنبيه وقربهم منه ، فمن ظفر بالمصاهرة فقد أدرك ما يرجو . ألا ترى أن عمر ﷺ أسف جد الأسف حين فارق رسول الله ﷺ ابنته وقال : لا يُعْبأ بعدها بعمر ، ولم ينكشف عنه الهم حتى روجعت . وأن عليا ــ كرم الله وجهه ــ على اتصاله برسول الله ﷺ من طريق النسب وشرف إقترانه بالزهراء رغب فى أن يزوجه أخته أم هانئ بنت أبى طالب ليتضاعف شرفه ولم يمنعها من ذلك إلا خوفها أن تقصّر فى القيام بحقوق الرسول مع خدمة أبنائها .

<u>وأما الأسباب الخاصة بزواج كل واحدة من أمهات المؤمنين فهى :</u>

١ ــ **تزوج النبى ﷺ بعد خديجة سَوْدة بنت زَمْعة** أرملة السكران بن عمرو الذى أسلم واضطُرّ إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة هربا من اضطهاد المشركين ومات هناك وأصبحت امرأته بلا معين وهى

أرمل رجل مات فى سبيل الدفاع عن الحق فتزوجها النبى ﷺ وفاء لرجل غادر الأهل والأوطان احتفاظاً بعقيدته وقد شاركته هذه الزوجة فى أهوال التغريب والنفى ، وحماية لها من أهلها أن يفتنوها ، لأنها هاجرت مع زوجها على غير رغبتهم .

٢ ــ **تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية** وعمرها زهاء خمسين عاما بعد وفاة زوجها أبارهم بن عبد العزيز بن أبى قيس من بنى مالك . وكانت لها بوفاته ظروف مشابهة لظروف سودة بنت زمعة ، وانضم إليها رغبته ﷺ فى تأليف القبائل ، وهدايتهم إلى الإسلام . هذا فضلاً عما كان يهدف إليه ﷺ من نقل السنة ، وتبليغ العلم فيما لا يضطلع بنقله وفقهه إلا العديد من النساء .

٣ ــ **تزوج جُويرية** وكان أبوها الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق ابن خزاعة جمع قبل إسلامه جموعا كثيرة لمحاربة النبى ﷺ ، ولما التقى الجمعان عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام فأبَوْه فحاربهم حتى هُزِمَوا ووقعت جويرية فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها على سبع أواق من ذهب فلم تر مُعينا لها غير النبى ﷺ فجاءت إليه وأدت بنسبها وطلبت حريتها فتذكر النبى ﷺ ما كان لأهلها من العز والسؤدد وما صاروا إليه بسوء التدبير والعناد ، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها من نجوم ثم تزوجها فقال المسلمون بعد أن اقتسموا بنى المصطلق إن أصهار رسول الله لا يُستَرقُّون ، واعتقوا من بأيديهم من سبيهم وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكرالله على الحرية بعد ذل الكفر والأسر .

٤ــ **تزوج السيدة عائشة** مكافأة لأبى بكر الصديق ، إذ كـــان شـــديد التمسك برسول الله ﷺ مولعا بالتقرب منه ، فكان ذلك قرة عيـــن لها ولأبويها ، وفخر لذوى قرباها ، وكان عبد الله بـــن الزبـــير (ابن أختها) يفاخر بنى هاشم بذلك .

٥ ــ **تزوج أم المؤمنين حفصة بنت عمر** مكافأة لزوجها الذى توفـــى مجروحا فى موقعة بدر ، وفى تلك الحقبة كانت السيدة رقية بنـــت الرسول ﷺ وزوج عثمان قد توفيت ، فعرض عمر ابنتـــه علـــى عثمان فأعرض عنها رغبة فى أم كلثوم بضْعة الرسول ليستديم له بذلك الشرف ، فعز هذا على عمر وأنِفت نفسه فشكاه إلى أبى بكر فقال له لعلها تتزوج من هو خير منه ويتزوج من هى خير منـــها له (يريد زواج عثمان بأم كلثوم وزواج حفصة بالنبى ﷺ) .

٦ ــ **تزوج صفية بنت حييّ بن أخطب سيد بنى النضير** ، وكانت قـــد وقعت فى السبى مع عشيرتها ، فأراد النبى ﷺ أن يتزوجها رأفـــة بها إذ ذلت بعد عزة ، واستُرِقّت وهى السيدة الشريفة عند أهلها ، وتأليفا لقومها حتى يدخلوا فى كَنَفِ الإسلام وينضووا تحـــت لوائه .

٧ ــ **تزوج زينب بنت جحش الأسدية** ، لإبطال عادة جاهليـــة كـــانت متأصلة عند العرب وهى التبنى بتنزيل الدعـــيّ منزلـــة الابـــن الحقيقى ، وإذا أراد الله إبطال هذه العادة جعل رسول الله ﷺ أسوة حسنة فى هذا ، فسعى فى تزويج زيد مولاه بعد أن أعتقه بزينـــب ذات الحسب والمجد فأنفت هى وأخوها عبد الله ، وأبت ان تكـــون زوجا لدعيّ غير كفء فأنزل الله : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة**

إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾
فرضيا بقضاء الله ورسوله غير أنها كانت نافرة مترفعة عن زيد ، ضائقة به ذرعا ، فآثر فراقها ، فسال الرسول الإذن في ذلك فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى فى نفسه ما الله مبديه من تزوجه منها بعد زيد ، وخشى أن يقول الناس : تزوج محمد امرأة زيد ابنه .

ولما لم يبق لزيد فيها شئ من الرغبة طلقها ، فتزوجها الرسول ﷺ إبطالا لتلك العادة وهى إعطاء المَتبنىَّ حكم الابن .

ومما سلف يستبين لنا أن ما يتقوله غير المصنفين من الغربيين من أن النبى ﷺ خوّل لنفسه ميزة لم يعطها لأحد من أتباعه لا وجه له من الصحة فإن زواجه بأمهات المؤمنين كان لأغراض اجتماعية إقتضتها الدعوة ، ولا سيما إذا علم أنه لم يتزوج بكراً قط إلا عائشة ، وأن من أمهات المؤمنين من كن فى سن الكهولة أو جاوزنها .

المسألة الثانية : أسباب إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام

يجدر بنا أن نبين الأسباب التى دعت إلى إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام : وهاك أهم الأسباب :

١ ــ قد تصاب المرأة أحيانا بمرض مزمن أو مرض معدٍ يجعلها غير قادرة على القيام بالواجبات الزوجية ، فيضطر الرجل إلى أن يقترف ما ينافى الشرف والمروءة ويُغضب الله ورسوله إن لم يبح له أن يتزوج بأخرى .

٢ ــ دل الإستقراء على أن عدد النساء يربو على عدد الرجال ، لمـــا يعانيه هؤلاء من الأعمال الشاقة التى تنهك القـــوى وتضـــوى الأجسام ، ولا سيما الحروب الطاحنة فإذا منع التعدد لا يجد النساء أزواجا يحصنونهن ويقومون بشؤنهن ، فيكـــثر الفســـاد ، ويلحـــق الأسر العار .

٣ ــ حضت الشريعة الإسلامية على كثرة النسل ، لتقوى شوكة الإسلام ، وتعلوا سطوته ، وتنفذ كلمته حتى ترهبه الأعـــداء ، ولا يمكـــن الوصول إلى ذلك إلا بإباحة تعدد الزوجات ولكن بشرط أن نحســـن تربية الأبناء .

٤ــ دل الإحصاء فى كثير من البلاد الغربية علـــى أن حظـــر تعـــدد الزوجات أدى إلى كثرة الأولاد غير الشرعيين .

٥ ــ أيضا كان من نتائج منع التعدد انتشار كثير من الأمراض الفتاكـــة التى أصابت الرجال والنساء حتى عجز الطـــب عـــن مكافحتـــها وتغلغل الداء وعز الدواء مثل مرض الإيدز .

آداب المؤمنين معه ﷺ ومع أزواجه

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًاإِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا(٥٣) ﴾ .

معانى المفردات .

إناه : أى نضجه . فانتشروا : أى فتفرقوا ولا تلبثوا . مستأنسين لحديث : أى مستمعين له . متاعاً : أى شيئاً تتمتعون به من ماعون وغيره ، وأطهر لقلوبكم : أى أكثر تطهراً من الخواطر الشيطانية التى تخطر للرجال فى أمر النساء وللنساء فى شأن الرجال .

علاقة هذه الآية بما قبلها :

لما بين سبحانه فى الآيات السابقة بعضا من أحكام زواج النبى ﷺ وخصوصياته فى هذا الأمر ، أردف ذلك ببيان الآداب التى يجب على المؤمنين مراعاتها مع النبى ﷺ ومع أزواجه ؛ لما فيها من الحكم السامية والمزايا الإجتماعية ، وهى أدب الطعام والجلوس والحديث والحجاب والنهى عن زواج نسائة من بعده .

وسببها : ما أخرجه البخارى (١) بسنده عن أنس بن مـــالك قال : بنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش فبعثت داعياً إلـــى الطعـــام فدعوت فيجئ القوم يأكلون ويخرجون ثم يجئ القوم يأكلون ويخرجـــون فقلت : يا نبى الله قد دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه . قـــال : ارفعـــوا طعامكم ، وإن زينب لجالسة فى ناحية البيت وكانت قد أعطيت جمـــالا وبقى ثلاثة نفر يتحدثون فى البيت وخرج رسول الله ﷺ منطلقـــا نحـــو حجرة عائشة فقال : السلام عليكم أهل البيت . فقالوا : وعليك الســـلام يارسول الله كيف وجدت أهلك ؟ بارك الله لك قال : فأتى حجر نســـائه فقالوا مثل ما قالت عائشة فرجع النبى ﷺ فإذا الثلاثة يتحدثون فى البيت وكان النبى ﷺ شديد الحياء فخرج النبى ﷺ منطلقا نحو حجرة عائشـــة فلا أدرى أخبرته أو أخبر أن الرهط قد خرجوا فرجع حتى وضع رجله فى أسكفة الباب داخلة وأخرى خارجة أرخى الستر بينى وبينه وأنزلـــت آية الحجاب .

عن أنس قال : " كانوا يتحينون فيدخلون بيت النبى ﷺ فيجلســـوا فيتحدثون ليدرك الطعام " ، حتى غار الله لهذه الأمة فـــأمرهم بذلـــك ، وذلك من إكرامه تعالى لهذه الأمة ، ثم استثنى من ذلك فقال تعـــالى : ﴿ **إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه** ﴾ أى غـــير منتظريـــن نضجه واستواءه فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه ؛ وهذا دليل على تحريم التطفل ، وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ : " لـــو دعيـــت إلـــى ذراع

---

(١)أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب النكاح ١١ / ١٣٩ . من الفتح . ، وأخرجـه الطبرى فى تفسيره ٢٢/٢٦ ــ ٢٧ .

لأجبت ، ولو أهدى إلىَّ كراع لقبلت ، فإذا فرغتم من الذى دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل وانتشروا فى الأرض " (١) .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إن ذلك كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق** ﴾ أى إن ذلك اللبس والأستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذى النبى ﷺ لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجاته ، إلى ما فيه من تضييق المنزل على أهله ، لكنه كان يستحى من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه ٠

وقوله : ﴿ **والله لا يستحى من الحق** ﴾ فالمراد من الحق : اخراجهم أو المنع من ذلك ، ووضع الحق موضعه لتعظيم جانبه ٠

والمعنى : أنه تعالى لم يترك الحق وأمركم بالخروج ٠

وفى هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعوإلى طعام بعد أن يَطْعَم إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت ، ولو كان البيت غير بيت النبى ﷺ فالتثقيل مذموم فى كل مكان ، محتقر لدى كل إنسان . وكذلك من يُدعى فى وقت معين مع جماعة فيتأخر عن ذلك من غير عذر كثير شرعى بل لمحض أن ينتظر ويظهر بين الحاضرين مزيد جلالته وأن صاحب البيت لايسعه تقديم الطعام للحاضرين قبل حضوره مخافة منه أو احتراماً أو لنحو ذلك فيتأذى الحاضرون أو صاحب البيت ، وقد رأينا مثل هذا الصنف كثيرا نسأل الله تعالى العافية .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب النكاح . باب من أجاب إلى كراع ١١ / ١٥٤ من الفتح .

ثم ذكر سبحانه أدبا آخر متعلقا بنساء النبـــى ﷺ فقـــال : ﴿ **وإذا سألتموهن متاعاً فسألوهن من وراء حجاب** ﴾ أى من وراء ستر بينكم وبينهن . والمتاع يطلق على كل ما يتمتع به .

والمعنى : وإذا سألتم أزواج رسول الله ﷺ شيئا تتمتعون به مـــن ماعون وغيره فاطلبوا منهن ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن ٠

أخرج البخارى (١) : عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قـــال : " قلت : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمـــرت أمـــهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب " ٠

وأخرج ابن جرير الطبرى (٢) : " عن عروة عن عائشـــة قالت : إن أزواج النبى ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المنـــاصع وهو صعيد أفيح ، وكان عمر يقول : يا رسول الله احجب نساءك فلـــم يكن رسول الله يفعل فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ وكـــانت امرأة طويلة فناداها عمر بصوته الأعلى قد عرفناك ياسودة حرصـــا أن ينزل الحجاب قال : فأنزل الله الحجاب "

قال ابن كثير (٣) : " هذه آية الحجاب وفيـــها أحكـــام وآداب شرعية وهى مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضى الله عنـــه كما ثبت فى الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربى عز وجل فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فـــأنزل الله تعـــالى :

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ٠ كتابل التفسير ١٠ / ١٤٨ فتح البارى ٠

(٢) تفسير الطبرى ٢٢ / ٢٩ ٠

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٨٣ ــ ٤٨٤ ٠

﴿ **واتخذوا من مقام أبراهيم مصلى** ﴾ [1] وقلـــت يـــا رســـول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجـــاب ، وقلت لأزواج النبى ﷺ لما تمالأن عليه فى الغيرة ﴿ **عســـى ربـــه إن طلقكن أن يبد له أزواجا خيرا منكن** ﴾ [2] فنزلت كذلك ، وفى روايـــة لمسلم ذكر أسارى بدر وهى قضية رابعة ٠٠٠

وكان وقت نزول آية الحجاب صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش التى تولى الله تعالى تزويجها بنفسه وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة الخامسة " أ ٠ هـ

والإشارة بقوله ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى سؤال المتاع مـــن وراء حجـــاب ، وقيل الإشارة إلى جميع ما ذكر من عدم الدخول بغـــير إذن ، وعـــدم الإستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع ، والأول أولى ، وإســـم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿ **أطهر لقوبكم وقلوبهن** ﴾ أى أكثر تطهيرا لـــها من الريبة ، وخواطر السوء التى تعرض للرجال فـــى أمـــر النســـاء ، وللنساء فى أمر الرجال . وفى هذا أدب لكل مؤمن وتحذير له مـــن أن يثق بنفسه فى الخلوة مع من لا تحل له والمكالمة من دون حجاب لمـــن تحرم عليه .

ولما ذكر ما ينبغى من الآداب حين دخول بيت الرسول ﷺ أكـــده بقوله تعالى : ﴿ **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله** ﴾ أى ومـــا كـــان ينبغى لكم أن تفعلوا فى حياته ﷺ فعلا يتأذى بـــه ويكرهـــه كـــاللبس

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٥ ٠

(٢) سورة التحريم الآية ٥ ٠

والاستئناس للحديث الذى كنتم تفعلونه ، فإن الرسول يسعى لخيركم ومنفعتكم فى دنياكم وآخرتكم ، فعليكم أن تقابلوا ذلك بالحسنى .

أيضا فإن هذه الآية بالرغم أنها أفادت الحث على الآداب السابقة فهى تمهيد لقوله تعالى ﴿ **ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا** ﴾ ، فزواج أمهات المؤمنين بعد رسول الله ﷺ إيذاء له .

ولما كان ﷺ قد قُصِرَ عليهن قَصَرَهُنَّ الله عليه وفى ذلك تشريفا له ﷺ بعد مماته بقوله : ﴿ **ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا** ﴾ أى : ولا تنكحوا أزواجه أبدا من بعد مفارقتهن بموت أو طلاق .

وقال ابن عطية : روى أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : لو مات رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة ؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فتأذى به [1] وإنما منع من التزوج بزوجاته ﷺ زيادة فى شرفه ، وإظهارا لعظمته وجلاله ، ولأنهن أمهات المؤمنين ، والمرء لا يتزوج أمه ، وقيل : لأنهن أزواجه فى الجنة ، وأن المرأة فى الجنة لآخر أزواجها.

قال أبو حذيفة لامرأته : إن سرك أن تكونى زوجتى فى الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوجى من بعدى ؛ فإن المرأة لآخر أزواجها [2] .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق .

قوله تعالى : ﴿ **إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَـــانَ بِكُـــلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا(٥٤)** ﴾ .

علاقة الآية بما قبلها :

بعد أن بين سبحانه فى الآية السابقة ايذاء النبى ، وزواج نسائه من بعده أمر عظيم ، وخطب جلل لا يقدر قدره غير الله تعالى ، ولا يخفـى ما فى هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد على هذا العمل إلى ما فيـــه من تعظيم شأن الرسول وإيجاب حرمته حيا وميتا .

بالغ فى الوعيد وزاد فى التهديد بقوله : ﴿ **إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شئ عليما** ﴾ ففى هذه الآية توبيخ ووعيد لمن تقـــدم التعريض به فى الآية التى قبلها ، ممن أشير إليه بقوله ﴿ **ذلكم أطـــهر لقلوبكم وقلوبهن** ﴾ ومن أشير إليه بقوله ﴿ **وما كـــان لكـــم أن تـــؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا** ﴾ فقيل لهم فـــى هـــذه الآية : إن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هـــذه المعتقـــدات والخواطـــر المكروهة ويجازيكم عليها . فصارت هذه الآية منعطفة على ما قبلـــها مبينة لها . **والله أعلم** .

من لا يجب على النساء أن يحتجبن منه من الرجال

﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا(٥٥) ﴾ .

سبب نزول هذه الآية :

لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية .

استثنى سبحانه فى هذه الآية بعض الأقارب ونساء المؤمنين والأرقاء فلا إثم على زوجات النبى ﷺ وغيرهن من النساء فى ترك الحجاب حين دخول آبائهن سواء أكان الأب أباً من النسب أم من الرضاع ، أو أبناء أبنائهن نسباً أو رضاعاً أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو النساء المسلمات القربى منهن والبعدى ، فتظهر بزينتها لهن دون نساء أهل الذمة ، لئلا تصفهن لرجالهن ، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع ، فأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه وقد قال رسول الله ﷺ " لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها " (١)

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً .

أقول : ولكن للأسف أن بعض النساء المسلمات ـ اسماً ـ لم يدعن شيئا من مفاتن ومحاسن أجسادهن إلا وقد أظهرنها ليس للذميات فحسب بل لجميع الرجال والنساء كاسيات عاريات متبرجات بكل أصناف الزينة . أسأل الله تعالى السلامة .

قوله : ﴿ **ولا ما ملكت أيمانهن** ﴾ أى من العبيد ، لما فى الإحتجاب منهن من المشقة ، لأنهم يقومون بالخدمة عليهن .

قال ابن جرير الطبرى [١] : " يعنى من نساء المشركين ، فيجوز لها ان تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها " .

وقال الأكثرون : بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء واستدلوا بالحديث الذى رواه أبو داود [٢] عن أنس أن النبى ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها ، قال : وعلى فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ثوب أذا قنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجلهيا لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبى ﷺ ما تلقى قال : " إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك " .

والذى أراه وأميل إليه ؛ أن المباح مما ملكت الأيمان : النساء والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم أما البالغون من العبيد فلا يجوز إظهار الزينة لهم ولابد من ارتداء زى الحشمة والوقار .

---

(١) تفسير الطبرى ١٨ / ٩٥ .

(٢) فى سننه كتاب اللباس ٤ / ٦٢ .

ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين . وقد يسمى العم أباً ، قال تعالى : ﴿ **نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل** ﴾ [1] وإسماعيل كان العم .

وعن عكرمة والشعبى قالا : " العم والخال لم يذكرا لأنهما ينعتانهما لأبنائهما . وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها " [2]

ثم أمرهن سبحانه بالتقوى التى هى ملاك الأمر كله فقال : ﴿ **واتقين الله إن الله كان على كل شئ شهيدا** ﴾ لما ذكر الله تعالى الرخصة فى هذه الأصناف والإباحة بإظهار الزينة لهم ، عطف عليها الأمر بتقوى الله تعالى . وهذا فى غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال : اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره ، وخص النساء بالذكر وعينهن فى هذا الأمر ، لقلة تحفظهن . والله أعلم .

ثم ختم سبحانه الآية بقوله : ﴿ **إن الله كان على كل شئ شهيدا** ﴾ وهى جملة تعليلية واردة مورد التعليل بعد الأمر بتقوى الله .

والمعنى : إن الله كاشف وشاهد على كل سريرة من سرائر الإنسان ، فلم يغب عنه شئ من الأشياء كائنا ما كان ، فهو مجاز للمحسن بإحسانه وللمسئ بإساءته ، وهذا وعيد لمن لم يتق الله فى أمره .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٣ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٢ / ٣٠ .

احترام النبى ﷺ فى الملأ الأعلى والملأ الأدنى

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(٥٦) ﴾

علاقة هذه الآية بما قبلها :

بعد أن بين سبحانه فى الآيات السابقة الآداب التى ينبغى على المؤمنين أن يتخلقوا بها مع رسول الله ﷺ ، أردف ذلك بالثناء عليه وتشريف مقامه فى حياته ومماته وذكر منزلته فى الملأ الأعلى ، وأمر بتعظيمه فى الملأ الأدنى فقال : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾ .

قال الألوسى : " وجملة ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى** ﴾ كالتعليل لما أفاده الكلام السابق من التشريف العظيم الذى لم يعهد له نظير " [١] فعلاقة هذه الجملة بالكلام السابق علاقة السبب بالمسبب .

والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والإستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره .

قال البخارى [٢] : " قال أبو العالية : صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة . وصلاة الملائكة الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون : يبركون أى يدعون له بالبركة .

---

(١) تفسير الألوسى ٢٢/ ٧٥ .

(٢) فى صحيحه . كتاب التفسير ١٠ / ١٥١ من الفتح .

وعن الأسرار والبلاغة فى قوله ﴿ **إن الله وملائكته يصلون علـــى النبى** ﴾ :

قال الألوسى : " والتعبير بالجملة الأسمية للدلالـــة علـــى الـدوام والاستمرار ، ••• وتفيد التجدد نظرا إلى أنها جملة فعلية فيكون مفادها استمرار الصلاة وتجددها وقتا فوقتا ، وتأكيدها بـــ ﴿ **إن** ﴾ للاعتنـــاء بشأن الخبر ، وقيل : لوقوعها فى جواب سؤال مقدر هو ما سبب هـــذا التشريف العظيم ؟

وكلمة : ﴿ **وملائكته** ﴾ عرفت بالإضافة فلم يقل إن الله والملائكة ؛ لأن اضافتهم إلى الله سبحانه تشريفا لهم وإعلاء لمنزلتهم ، وفى ذلـــك ضرب آخر من التكريم للنبى ﷺ .

واختلف العلماء فى الضمير فى قوله : ﴿ يصلون ﴾ .

" **فقالت جماعة** : الضمير فيه لله والملائكة ؛ وهذا قـــول مـــن الله تعالى شرف به ملائكته ، فلا يصحبه الاعتراض الذى ثبت عنه ﷺ لما سمع قول الخطيب يقول : من يطع الله ورســـوله فقـــد رشـــد ، ومـــن يعصهما فقد غوى ، فقال : بئس خطيب القوم أنت ، قل ومن يعص الله ورسوله . قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره فـــى ضمير ، ولله أن يفعل فى ذلك ما يشاء .

وقالت جماعة أخرى : فى الكلام حـــذف ، تقديـــر إن الله يصلـــى وملائكته يصلون ، وليس فى الآية اجتماع فى ضمير واحـــد ، وذلـــك

جائز للبشر ولم يقل رسول الله ﷺ " بئس الخطيب أنت " لهذا المعنى ، وإنما قال لأن الخطيب وقف على ومن يعصهما ، وسكت سكتة " (١) .

قال ابن كثير : " والمقصود من هذه الآية ، أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة نبيه عنده فى الملأ الأعلى ، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعا " (٢) .

وقد اختلف أهل العلم فى الصلاة على النبى ﷺ هل هى واجبة ام مستحبة ؟

وقد حكى هذا الزمخشرى فى تفسيره (٣) فقال : " فإن قلت الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة ، وقد اختلفوا فى حال وجوبها ، فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره . . . ويروى أنه قيل يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى** ﴾ فقال ﷺ هذا من العلم المكنون ولولا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم به إن الله وكل بى ملكين فلا أذكر عند عبد مسلم فيصلى علىَّ إلا قال ذلك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين . ولا أذكر عند مسلم فلا يصلى علىّ إلا قال ذلك الملكان لاغفر الله لك وقال الله وملائكته لذينك الملكين آمين .

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٤ / ٣٠٠ بتصرف .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٦ ــ ٤٨٧ .

(٣) الكشاف ٣ / ٢٤٥ بتصرف .

ومنهم من قال : تجب في كل مجلس مرة وإن تكـــرر ذكره ، كما قيل في آية السجدة وتشميت العاطس . وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره .

ومنهم من أوجبها في العمر مرة . وكذلك في إظهار الشـــهادتين . والذي يقتضيه الإحتياط : الصلاة عند كل ذكر ، لما ورد من الأخبـــار في ذلك " أ . هـــ .

صفة الصلاة عليه ﷺ :

فقد روى في صفة الصلاة عليه ﷺ آثار كثيرة أصحـــها مـــا روى عن كعب بن عُجْرَة قال : سألنا رسول الله ﷺ فقلنا يارسول الله كيـــف الصلاة عليكم أهل البيت ؟ فإن الله قد علمنا كيف نسلم ، قال : قولـــوا : اللهم صلى على محمد وعلىآل محمد كما صليت على إبراهيم وعلـــى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كمـــا باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد [١] .

أقول هذا في التشهد أما الصلاة والتسليم المأمور بها في الآية همـــا أن نقول : اللهم صلى عليه وسلم ، أو نحو ذلك مما يؤدي معناه .

فضل الصلاة على النبي ﷺ :

روى الترمذي [٢] عن عبد الله ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : " أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة " .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب الأنبياء ٧ / ٢٢٠ من الفتح .

(٢) في سننه . أبواب الصلاة . باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ ٢ / ٣٥٤ .

أيضا روى الترمذى [1] عن أبى بن كعب عن أبيه قـــال : كـان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : يا أيها النـــاس اذكـــروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيـــه ، قال أبىّ : قلت يارسول الله إنى أُكْثِرُ الصلاة عليك فكم أجعل لك مـــن صلاتى ؟ فقال : ما شئت . قال : قلت الربع ، قال : ما شـئت ، فـإن زدت فهو خير لك ، قلت : النصف . قال : ما شئت فإن زدت فهو خير لك قال : قلت فالثلثين ، قال ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك ، قلـــت أجْعَلُ لك صلاتى كلها ؟ قال : إذا تُكْفَى همك ، ويغفر لك ذنبك .

وعن عبد الرحمن بن عوف قال : قام رسول الله ﷺ فتوجه نحـــو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجدا فأطال السجود حتى طننـــت أن الله قد قبض نفسه فيها فدنوت منه ثم جلست فرفع رأسه فقال : " مـــن هذا " قلت : عبد الرحمن ، قال : " ما شأنك؟ " قلت : يـــا رســـول الله سجدت سجدة خشيت أن يكون الله قبض روحك فيـــها ، فقـــال : " إن جبريل أتانى فبشرنى أن الله عز وجل يقول لك من صلى عليك صليـت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه فسجدت لله عز وجل شكراً [2] .

وروى عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " من صلـــى علىَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا " [3].

---

(١) فى سننه كتاب صفة القيامة ٤ / ٦٣٧ . قال أبو عيسى : هذا حديـــث حســن صحيح .

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده .

(٣) اخرجه الترمذى فى سننه . أبواب الصلاة ٣٥٥/٢.

وعن **على بن الحسين عن أبيه** ﷺ أن رسول الله ﷺ قـــال : " البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل علىَّ " [1] .

وعن **سعيد بن المسيب** عن عمر بن الخطاب قال : " الدعاء موقـــوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شئ حتى تصلى على نبيك ﷺ [2] .

وروى **القرطبى عن أبى سلمان الدارنى قال** : " من أراد أن يســأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبىﷺ ثم يسأل الله حاجته ، ثم يختـــم بـالصلاة على النبى ﷺ فإن الله تعالى يقبل الصلاتين وهو أكـــرم مـــن أن يـــرد مــا بينهما " [3] .

حكم الصلاة على غير الأنبياء :

إن الصلاة على غير الأنبياء إن كانت على سبيل التبعية كما تقـــدم فى الحديث : اللهم صلى على محمد وعلـــى آلـــه . . . ، فـــهذا جـــائز بالإجماع ، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم .

قال الشوكانى [4]: " لا يجوز لنا ان نصلى على غيره من أمته كمـا يجوز لنا ان نقول : اللهم ارحم فلانا أو رحم الله فلانـــا . وبـــهذا قـــال جمهور العلماء مع اختلافهم هل هو محرم ، أو مكروه كراهة شـــديدة . أو مكروه كراهة تنزيه على ثلاثة أقوال .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده . والترمذى . كتاب الدعاء . وقـــال حديـــث حسن صحيح .

(٢) رواه الترمذى فى سننه . أبواب الصلاة ٢ / ٣٦٥ . وهذا الخبر موقوف لكنـــه فـــى حكم المرفوع .

(٣) تفسير القرطبى ١٤ / ١٥١ .

(٤) فتح القدير ٤ / ٣٠٢ .

وقد قال ابن عباس كما رواه عنه ابن أبى شيبة والبيهقى فى الشعب لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبى ﷺ . ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالإستغفار . وقال قوم : إن ذلك جائز لقوله تعالى : ﴿ **وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم** ﴾ (١) **ولقوله** ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة** ﴾ (٢) **ولقوله** ﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته** ﴾ (٣) ، ولحديث عبد الله بن أبى أوفى قال : " كان النبى ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : اللهم صل على فلان . فأتاه أبى بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبى أوفى " (٤)

قال الشوكانى : ويجاب عن هذا بأن هذا الشعار الثابت لرسول الله ﷺ له أن يخص به من شاء . وليس لنا أن نطلقه على غيره .

أما قوله تعالى : ﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته** ﴾ **وقوله** : ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم** ﴾ فهذا ليس فيه إلا أن الله سبحانه يصلى على طوائف من عباده كما يصلى على من صلى على رسوله مرة واحدة عشر صلوات ، وليس فى ذلك أمر لنا ولا شرعه الله فى حقنا ، بل لم يشرع لنا إلا الصلاة

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٥٧ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الزكاة ٤ / ١٠٤ من الفتح .

والتسليم على رسوله وكما أن لفظ الصـلاة علـى رسـول الله شـعار له ، فكذا لفظ السلام عليـه .

وقد جرت عادة جمهور الأمة والسواد الأعظم من سـلفها وخلفـها على الترضى عن الصحابة والترحم على من بعدهم والدعاء لهم بمغفرة الله وعفوه كما أرشدنا إلى ذلك بقوله سبحانه : ﴿ **والذين جـاءوا مـن بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا إنك رءوف رحيم** ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحشر الآية ١٠ .

عقاب من يؤذون الله ورسوله والمؤمنين

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا(٥٧)وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا(٥٨) ﴾ .

علاقة الآية بما قبلها :

لما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه فقال : **﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ﴾** .

اختلف العلماء فى أذية الله بماذا تكون ؟

فقال جمهور من العلماء : معناه بالكفر ونسبة الصحابة والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به ؛ كقول اليهود لعنهم الله : وقالت اليهود (يد الله مغلولة) ، والنصارى : (المسيح ابن الله) ، والمشركون : (الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه) [(١)] .

قلت : ومن أذية الله تعالى ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال : قال الله : " كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان . وأما شتمه إياى فقوله لى ولد فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولدا [(٢)] .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٥٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير ٩ / ٢٣٤ من الفتح .

وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم يقول : يا خيبة الدهر ، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإنى أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما [(١)] .

وقال عكرمة : معناه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها .

وأما أذية رسول الله ﷺ :

فهى كل ما يؤذيه من الأقوال ومن الأفعال . أما الأقوال فكقولهم : ساحر . شاعر . كاهن . مجنون . وأما الأفعال : فكسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد ، وإلقاء القاذورات على ظهره وهو ساجد بمكة .

وقال ابن عباس : نزلت فى الذين طعنوا على النبى ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيى بن أخطب [(٢)] . أى تزوجها .

والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذى الله ورسوله ٠

هؤلاء الذين يؤذون الله ورسوله ﴿ **لعنهم الله فى الدنيا والآخرة** ﴾ أى : طردهم من رحمته وأبعدهم من فضله وجعل ذلك فى الدنيا والآخرة . ﴿ **وأعد لهم عذاباً مهينا** ﴾ أى : وهيأ لهم عذاباً يؤلمهم ، ويجعلهم فى مقام الزراية والإحتقار ، والخزى والهوان وهو عذاب جهنم فى الآخرة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الفاظ الأدب . باب النهى عن سب الدهر ١٥ / ٣ شرح النووى .

(٢) تفسير القرطبى ٢٢ / ٣٢ .

ولما فرغ من الذم لمن آذى الله ورسوله ذكر الأذية لصالح عباده فقال : ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبينا** ﴾ . **قوله** : ﴿ **بغير ما اكتسبوا** ﴾ أى : بغير جناية يستحقون بها الأذى .

والبهتان : هو الفعل الشنيع ، ويطلق على الكذب الذى يبهت الشخص لفظاعته ، روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته " (١) ، وإثماً مبينا : أى ذنبا واضحاً بيناً .

أذية المؤمنين والمؤمنات :

هى أيضا بالأفعال والأقوال القبيحة ، كالبهتان والتكذيب الفاحش المختلق . وقد قيل : إن من الأذية تعييره بحسب مذموم ، أو حرفة مذمومة ، أو شئ يثقل عليه إذا سمعه .

فالذين ينسبون إلى المؤمنين والمؤمنات ما لم يعملوه ــ وما هم منه براء ــ قد اجترحوا كذباً فظيعاً ، وأتوا أمراً وذنباً ظاهراً ، أما الأذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبه مما يوجب عليه حداً أو تعذيراً أو نحوهما ، فذلك حق أثبته الشرع وأمرنا الله به وندبنا إليه ، وهكذا إذ وقع من

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الغيبة ١٦/ ١٤٢ شرح النووى .

المؤمنين والمؤمنات الإبتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة أو ضـــرب ، فـإن القصاص من الفاعل ليس من الأذية المحرمة على أى وجه كان ما لـم يجاوز ما شرعه الله .

ومعنى ذلك : أن من أتى من المؤمنين عملاً يلام عليـه لا يجـوز إيذاؤه بالقول أو الفعل ، إلا إذا كان ذلك فى حد أو قصاص .

وآذية المؤمن بالكلام لاتخرج عن أن تكـون غيبـة أو بـهتاناً وكلاهما حرام نهى الله عنه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أنْ يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ (١)

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٢ . وللتوسع فى الغيبة ، وبواعثها ، وعلاجـها والأعـذار المبيحة للغيبة ، وحكم الغيبة وكفارتها ، انظر كتابنا : تفسير سورة الحجرات .

الأمر بالحجاب

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(٥٩) ﴾

معانى المفردات :

الجلاليب : واحدها جلباب وهى الملاءة التى تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار ، يدنين : أى يرخين ويسدلن ، يقال للمرأة أذا زل الثوب عنها ادنى ثوبك عليك ، أدنى : أى أقرب ، أن يعرفن : أى يميزن عن الإساءة .

علاقة هذه الآية بما قبلها :

بعد أن ذكر سبحانه أن من يؤذى مؤمنا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ، زجرا لهم عن الإيذاء ــ أمر الله تعالى ــ النبى ﷺ بأن يأمر بعض المتأذين بفعل ما يدفع الإيذاء عنهم من التستر والتميز بالزى واللباس حتى يبتعدوا عن الأذى بقدر المستطاع .

سبب نزول الآية :

قال الألوسى روى أنه كانت الحرة والأمة تخرجان ليلاً لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل من غير امتياز بين الحرائروالإماء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر فإذا

قيل لهم يقولون : حسبناهم إماء . فأمرت الحرائر أن يخالفن الإماء بالزى والتستر ليحتشمن ويَهَبن فلا يطمع فيهن " [1] .

قوله تعالى : ﴿ **قل لأزواجك وبناتك** ﴾ قال قتادة : " مات رسول الله ﷺ عن تسع . خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة . وثلاث من سائر العرب : ميمونة ، وزينب بنت جحش ، وجويرية . وواحدة من بنى هارون : صفية " [2] .

وأما أولاده فكان للنبى ﷺ أولاد ذكور وإناث .

قال القرطبى : " فالذكور من أولاده : القاسم ، أمه خديجة ، وبه كان يكنى ﷺ وهو اول من مات من أولاده ، وعاش سنتين . وقال عروة : ولدت خديجة للنبى ﷺ القاسم والطاهر وعبد الله والطيب ويقال إن الطاهر هو الطيب وهوعبد الله . وابراهيم أمه مارية القبطية ، ولد فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفى ابن ستة عشر شهرا ، وقيل : ثمانية عشر . ودفن بالبقيع . وجميع أولاد النبى ﷺ من خديجة سوى ابراهيم . وكل أولاده ماتوا فى حياته غير فاطمة .

وأما الإناث من أولاده فمنهن : فاطمة الزهراء بنت خديجة ، ولدتها وقريش تبنى البيت قبل النبوة بخمس سنين ، وهى أصغر بناته ، وتزوجها على رضي الله عنه فى السنة الثانية من الهجرة فى رمضان ، وبنى بها

(١) روح المعانى للألوسى ٢٢ / ٨٨ .

(٢)ذكره القرطبى فى تفسيره ١٤ / ١٥٥ .

فى ذى الحجة . وقيل : تزوجها فى رجب ، وتوفيت بعد رسول الله ﷺ بيسير، وهى أول من لحقه من أهل بيته ـ رضى الله عنها ـ .

ومنهن : زينب ـ أمها خديجة ـ تزوجها ابن خالتها أبو العاص ابن الربيع ، وكانت أم العاص هالة بنت خويلد أخت خديجة . وكانت أكبر بنات رسول الله ﷺ وتوفيت سنة ثمان من الهجرة ونزل رسول الله ﷺ فى قبرها .

ومنهن : رقية ـ أمها خديجة ـ تزوجها عُتبة بن أبى لهب قبل النبوة ، فلما بعث رسول **الله** ﷺ وأنزل عليه ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب** ﴾ [١] . قال أبو لهب لابنه : رأسى من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته ، ففارقها ولم يكن بنى بها وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة ، وبايعت رسول الله ﷺ هى وأخواتها حين بايعه النساء ، وتزوجها عثمان بن عفان ، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين ، وكانت قد اسقطت من عثمان سقطاً ، ثم ولدت بعد ذلك عبد الله ، وكان عثمان يكنى به فى الإسلام ، وبلغ ست سنين فنقره ديك فى وجهه فمات ولم تلد له شيئاً بعد ذلك ، وهاجرت إلى المدينة ومرضت ورسول الله ﷺ يتجهز إلى بدر فخلّف عثمان عليها ، فتوفيت ورسوله ﷺ ببدر ، على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة . وقدم زيد بن حارثة بشيراً من بدر ، فدخل المدينة حين سوّى التراب على رقية . ولم يشهد دفنها رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة المسد الآية ١ .

ومنهن أم كلثوم ـ أمها خديجة ـ تزوجها عتيبة بن أبى لهب ـ أخو عتبة ـ قبل النبوة ، وأمره أبوه أن يفارقها للسبب المذكور فى أمر رقية ، ولم يكن دخل بها ، فلم تزل بمكة مع رسول الله ﷺ وأسلمت حين أسلمت أمها ، وبايعت رسول الله ﷺ مع أخواتها حين بايعه النساء ، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله ﷺ . فلما توفيت رقية تزوجها عثمان ، وبذلك سمى ذا النورين . وتوفيت فى حياة النبى ﷺ فى شعبان سنة تسع من الهجرة . وجلس رسول الله ﷺ على قبرها ، ونزل فى حفرتها علىّ والفضل وأسامة .

وذكر الزبير بن بكار أن أكبر ولد النبى ﷺ : القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله وكان يقال له الطيب والطاهر ، وولد بعد النبوة ومات صغيراً ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية . فمات القاسم بمكة ثم مات عبد الله [1] .

وإجمال ذلك ـ إن على المسلمة إذا خرجت من بيتها لحاجة أن تسدل عليها ملابسها بحيث تغطى الجسم والرأس ولا تبدى شيئاً من مواضع الفتنة كالرأس والصدر والذراعين ونحوها .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ أى ذلك التستر أقرب لمعرفتهن بالعفة فلا يُتَعَرّض لهن ، ولا يلقين مكروهاً من أهل الريبة احتراماً لهن منهم ، فإن المتبرجة مطموع فيها ، منظور إليها نظرة سخرية واستهزاء ، كما هو مشاهد فى كل عصر ومصر ،

---

(١) راجع تفسير القرطبى ١٤ / ١٥٦ . وحياة محمد . لمحمد حسين هيكل ص ١٢٨ ، ١٢٩

ولا سيما فى هذا العصر الذى انتشرت فيه الخلاعة ، وكثر الفسق والفجور .

وتساهل بعض الأسر فى أن تبدى المرأة زينتها أو مفاتن جسمها لغير زوج أحل الله له ذلك ، وهذا يؤدى إلى إشاعة الفاحشة فى المجتمع ، وينشر الفساد ، ويغرى الفساق وطلاب الحرام . أيضاً فإن المرأة المتكشفة المبتذلة ــ الكاسية العارية ــ تفقد بذلك من رصيد زوجيتها وأمومتها وتتحول إلى سلعة تباع وتشترى وتقيم حول نفسها سياجاً من الذل والعبودية وتخسر الزوج الصالح ، وبالتالى تخسر الأبناء الصالحين ومن هنا يخسر المجتمع بيتاً راشداً تقوم عليه ربة أسرة فاضلة ويخسر رجلاً آثر العزوبة والهوى على الزوجية والسكن وعاش ضائعاً بين الفساد والفاحشة ..

ثم ختم سبحانه الآية بقوله : ﴿ **وكان الله غفوراً رحيما** ﴾ أى : وربك غفار لما عسى أن يكون قد صدر من الإخلال بالستر ، كثير الرحمة لمن امتثل أمره معهن ، فيثيبه عظيم الثواب ، ويجزيه الجزاء الأوفى .

تهديد المنافقين إن لم ينتهوا عن نفاقهم

﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً(٦٠)مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١)سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً(٦٢) ﴾

علاقة هذه الآيات بما قبلها :

قال الفخر الرازى : " لما ذكر حال المشرك الذى يؤذى الله ورسوله ، والمجاهر الذى يؤذى المؤمنين ، ذكر حال المسر الذى يظهر الحق ويضمر الباطل وهو المنافق ، ولما كان المذكور من قبل أقواماً ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة وهم : المؤذون الله . والمؤذون الرسول . والمؤذون المؤمنين ، ذكر من المسرين ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمورثلاثة :

أحدها : المنافق الذى يؤذى الله سراً .

الثانى : الذى فى قلبه مرض الذى يؤذى المؤمن باتباع نسائه .

الثالث : المرجف الذى يؤذى النبى ﷺ بالإرجاف بقوله غُلب محمد وسيخرج من المدينة [1] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٢٥ /٢٣٠ .

وقيل : لما كان الأذى فى الآية السابقة ﴿ **ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين** ﴾ إنما يحصل من أهل النفاق ومن على شاكلتهم ، حذرهم فى هذه الآية .

قال القرطبى [1] : " قوله تعالى : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون ...** ﴾ الآية . ذكر أهل التفسير أن الأوصاف الثلاثة لشئ واحد " .

والمعنى : أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق ومرض القلوب والإرجاف على المسلمين . فإن كانوا قوماً واحداً إلا أن لهم ثلاثة اعتبارات وهذا فى مقابلة قوله تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . . .** ﴾ حيث ذكر أصنافاً عشرة وكلهم يوجد فى واحد فهم واحد بالشخص كثير بالإعتبار .

وقيل : كان منهم قوم يُرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين .

قال ابن زيد : ﴿ **الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ هم أهل الزنا من أهل النفاق الذين يطلبون النساء فيبتغون الزنا [2]. ﴿ **والمرجفون فى المدينة** ﴾ قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوءهم من عدوهم فيقولون : أتاكم عدد وعدة .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٥٧ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٢ / ٣٤ .

قال ابن عباس : الإرجاف التماس الفتنة ، وإشاعة الكذب والباطل للإغتمام به [١] .

وأصل الإرجاف : التحريك من الرجفة التى هى الزلزلة ، وصفت به الأخبار الكاذبة لكونها فى نفسها متزلزلة غير ثابتة ، أو لتزلزل قلوب المؤمنين واضطرابها منها .

واللام فى ﴿ **لئن** ﴾ موطئة للقسم ، فالكلام بعدها قسم محذوف ، والتقدير : والله لئن لم ينته .

وقد صدرت الآية بأقوى ما يؤكد به المعنى ، وهو قسم من الله تعالى وفى ذلك من التهديد ما لا يقدر قدره .

وجملة ﴿ **لنغرينك بهم** ﴾ جواب القسم ، أى : لندعونك إلى قتالهم وإجلائهم ، يقال : أغراه بكذا ، أى : دعاه إلى تناوله بالتحريض عليه . " وعن ابن عباس رضى الله عنه قال معناه : لنسلطنك عليهم ، وقال قتادة : لنحرشنك بهم ، وقال السدِّى : لنعلمنك بهم " [٢] .

قوله : ﴿ **ثم لا يجاورنك فيها إلا قليلا** ﴾ أى : فى المدينة ، والجملة عطف على جواب القسم ؛ ﴿ **ثم** ﴾ حرف عطف للتراخى وإنما أوثر حرف العطف الدال على التراخى ، لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم من جميع ما أصيبوا فتراخت حاله عن حال المعطوف

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٥٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٤٩٨ .

عليه ، وفيه إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعى يمهل ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهـــة مــن الزمان حتى يتحصل له منزل آخرعلى حســب الإجتــهاد ، ولا : نافية ، ويجاورونك : فعل مضارع معطوف علــى نغرينـك فــهو مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون ، والواو فاعله . والكاف مفعولـــه ، فيها : جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وإلا : أداة حصــر ، وقليلا : ظرف زمان متعلـــق بيجـاورونك أو مصـــدر ــ أى إلا جواراً ــ أى زمنا قليلاً ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالهم .

ثم بين مآل أمرهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة فقال :

﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ أى فـــى ذلـك الوقت الذى يجاورونك فيه يكونون مطرودين من رحمـــة الله ، وإذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة ، ولا يجدون ملجأ . بل أينما يكونـــوا يطلبوا ويؤخذوا ويقتلوا تقتيلا .

وتضعيف الفعل " قتلوا " وتأكيده بـــالمصدر " تقتيـــلاً " يؤكــد عنف ما سوف يتعرضون له من هلاك ، ومقدار ما يكونون عليـــه من ذلة وقلة .

قوله تعالى : سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا ﴾ .

علاقة الآية بما قبلها :

بعد أن توعد الله المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى المدينة بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا هو شِرْعة الله فى أشياعهم من قبل ، فهو ليس ببدع فيهم فقال تعالى : ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ أى إن سنته تعالى فى المنافقين فى كل زمان إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم ولم يرجعوا عما هم عليه أن يسلط عليهم أهل الإيمان فيذلوهم ويقهروهم ، وهذه السنة لا تتغير ولا تتبدل ، لا بتنائها على الحكمة والمصلحة .

وقوله ﴿ **فى الذين خلوا من قبل** ﴾ .

حرف ﴿ **فى** ﴾ ظرف ، وهو كناية عن تغلغل العذاب فيهم وتناوله لجميعهم .

والمراد بقوله ﴿ **الذين خلوا من قبل** ﴾ أى : الذين مضوا وتقدموا ، أعداء النبى ﷺ مثل الذين قتلوا من المشركين ، والذين قتلوا من يهود بنى قريظة .

ويحتمل أن يكون المراد بـ ﴿ **الذين خلوا من قبل** ﴾ الأمم السابقة الذين غضب الله عليهم لإيذائهم رسلهم ، فاستأصلهم الله تعالى مثل قوم عاد وفرعون وأضرابهم .

وذيلت الآية بقوله ﴿ **ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ لزيادة تحقيق أن العذاب حائق بالمنافقين وأتباعهم إن لم ينتهوا عما هم فيه ، وأن الله لا يخالف سنته ؛ لأنه مقتضى حكمته وعلمه .

ندم المشركين يوم القيامة

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنْ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا(٦٣)إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا(٦٤)خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا(٦٥)يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ(٦٦)وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ(٦٧)رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا(٦٨) ﴾ .

علاقة هذه الآيات بما قبلها :

بعد أن ذكر الله تعالى حال المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى المدينة ، وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون عطف على ذلك حالهم فى الآخرة فذكرهم بيوم القيامة ، وبين ما يكون لهم فى هذا اليوم .

قوله تعالى : ﴿ **يسألك الناس عن الساعة** ﴾ أى يكثر الناس هذا السؤال متى تقوم الساعة ؟

والمراد بالناس : أصناف منهم : المشركون الذين يسألون عن ذلك استعجالاً لها عن طريق التهكم والاستهزاء ، والمنافقون الذين يسألون سؤال المتعنت العالم بما يجيب به الرسول ، واليهود الذين يسألون سؤال امتحان واختبار ، ليعلموا أيجيب بمثل ما فى التوراة من رد أمرها إلى الله أم يجيب بشئ آخر؟

أما المؤمنون المصدقون بها فيسألون عن أحوالها وأهوالـــها وهــم مشفقون خائفون منها وهؤلاء هم الذين أخبر الله عنهم فى قوله تعـالى : ﴿ **والذين آمنوا مشفقون منه ويعلمون أنها الحق** ﴾ [1]

والساعة لغة : هى جزء من أجزاء الليل والنهار .

وفى المصطلح القرآنى : هى علم من الوقت المحدد الذى تنتهى فيه حياة كافة البشر ، وقد سميت ساعة ، لأنها تفاجئ الناس فـــى ســاعة محددة معلومة لله عز وجل مخفية عن كل الناس .

وقد لقنه الله تعالى الجواب عن هذا السؤال بأن يخبرهم بأن علمـــها مقصور على الله سبحانه فقال : ﴿ **قل إنما علمها عند الله** ﴾ أى أجبهم عن سؤالهم وقل علمها عند الذى أحاط علمه بكل شئ ، ولم يطلع عليـه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلا .

ثم أكد نفى علمها عن أحد غيره بقوله : ﴿ **وما يدريك** ﴾ خطـــاب مستقل له ﷺ لبيان أنها مع كونها غير معلومة فهى مرجوة المجـــئ عن قريب ، و(ما) إسم استفهام مبتدأ وجملة (يدريك) خبره .

ثم أخبر عن قرب وقوعها بقوله تعالى : ﴿ **لعـل السـاعة تكـون قريباً** ﴾ أى لعلها توجد وتتحقق فى وقت قريب . و ﴿ **قريباً** ﴾ منصوب على الظرفية ، و (تكون) تامة ويجوز أن تكون ناقصة وإذا كــان (قريباً) الخبر واعتبر وصفاً لا ظرفاً فالتذكير لكونه فى الأصل صفة

---

(١) سورة الشورى من الآية ١٨ .

لخبر مذكر يخبر به عن المؤنث ، وليس هو الخبر ، أى لعل الساعة تكون شيئاً قريباً ، ويمكن أن يقال إن تذكير ﴿ **قريباً** ﴾ رعاية للمعنى من حيث أن الساعة بمعنى اليوم أو الوقت .

وقد أشار الزمخشرى إلى الوجهين بقوله : (قريباً) شيئاً قريباً أو لأن الساعة فى معنى اليوم أو فى زمان قريب [1] . وقيل : إن قريباً لكونه فعيلاً يستوى فيه المذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ [2] .

وقد أخفى وقت الساعة ليكون العبد مستعداً لها فى كل وقت . ونحو ذلك الآية قوله : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ [3] وقوله : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون** ﴾ [4] **وقوله** : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾ [5] .

وفى هذا تهديد للمستعجلين المستهزئين ، وتبكيت للمتعنتين والممتحنين .

ثم بين حال السائلين عنها المنكرين لها بقوله : ﴿ **إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبدا** ﴾ والمعنى : أن الله تعالى

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٤٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٦ .

(٣) سورة القمر الآية ١ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ١ .

(٥) سورة النحل الآية ١ .

طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته العاجلة والآجلة ، وأعد لهم في الآخرة ناراً شديدة الإتقاد ، ما كثين فيها أبداً إلى غير نهاية .

ثم أيأسهم من وجود ما يدفع عنهم العذاب من الولى والنصير بقوله : ﴿ **لا يجدون ولياً ولا نصيرا** ﴾ أى لا يجدون حينئذ من يستنقذهم من السعير وينجيهم من عذاب الله ، بشفاعة أو نصرة كما هو الحال فى الدنيا لدى الظلمة ، إذ ربما وُجد النصير والشفيع . فهم لا يجدون الولى ولا النصير فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ و(يوم) ظرف لقوله (لا يجدون) ، أى : إن وجدوا أولياء ونصراء فى الدنيا فيوم تقلب وجوههم فى النار لا يجدون وليا ولا نصيرا ، وقيل : لـ (خالدين) ، وقيل لـ (نصيرا) ، وقيل لفعل مقدر وهو " أذكر ".

وقرأ الجمهور (تقلب) بضم التاء وفتح اللام على البناء للمفعول . وقرأ عيسى الهمدانى وابن أبى اسحاق (نقلب) بالنون وكسر اللام على البناء للفاعل ، وهو سبحانه . وقرأ عيسى أيضا بضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعير وجوههم [1] .

قال الألوسى : " ومعنى هذا التقلب المذكور فى الآية أى تُصَرَّف وجوههم فيها من جهة إلى جهة كاللحم يشوى فى النار

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٤ /٣٠٦ .

أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة إلى جهة أو تتغير وجوههم من حال إلى حال فتتوارد عليها الهيئات القبيحة من شدة الأهوال أو يوم يلقون فى النار مقلوبين منكوسين "[1]

وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أكرم الأعضاء ففيه مزيد تفظيع للأمر وتهويل للخطب ، ولأن حر النار يؤذى الوجوه أشد مما يؤذى بقية الجلد ، لأن الوجوه مقر الحواس الرقيقة كالعيون والأفواه والآذان ، ويجوز أن تكون عبارة عن كل الجسد.

قوله : ﴿ **يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾

هذه الجملة مستانفة استئنافا بيانيا ، وبينها وبين ما قبلها شبه كمال اتصال ، فهى جواب عن سؤال مقدر ، وكأن سائلا سأل : فماذا يقولون عندما تقلب وجوههم فى النار ؟ فقيل : يقولون متحسرين على ما فاتهم ﴿ **ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾

وقوله ﴿ **ياليتنا** ﴾ كناية عن الندم والحسرة على ما فات .

والألف فى آخر قوله ﴿ **الرسولا** ﴾ لرعاية الفواصل التى بنيت عليها السورة ، فإنها بنيت على فاصلة الألف وهى ألف الإطلاق إجراء للفواصل مجرى القوافى التى تلحقها ألف الإطلاق ، وقد تقدم ذلك فى قوله تعالى ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ .

---

(١) روح المعانى للألوسى ٩٣/٢٢ .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا** ﴾ [1] وقوله : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا** ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ **ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾ ، والمراد بالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم فى الدنيا ويقتدون بهم ، وفى هذا إحالة الذنب على غيرهم كما هى عادة المذنب بفعل ذلك وهو يعلم أنه لا يجديه نفعا .

وجملة ﴿ **فأضلونا السبيلا** ﴾ أى : جعلونا ضالين عن الطريق الحق وصرفونا عنه وزينوا لنا الكفر والضلال .

ثم دعوا الله على سبيل التشفى ممن أوردهم هذا المورد الوخيم أن يضاعف لهم العذاب فقالوا :

﴿ **ربنا آتهم ضعفين من العذاب** ﴾ أى مثل عذابنا مرتين لأنهم ضلوا وأضلونا ، واخزهم خزيا عظيما واطردهم من رحمتك .

وإعادة النداء فى قولهم ﴿ **ربنا أتهم ضعفين ..** ﴾ تأكيد للضراعة والابتهال ، وتمهيد لقبول سؤالهم ، حتى إذا قبل سؤالهم طمعوا فى التخلص من العذاب الذى ألقوه على كاهل سادتهم وكبرائهم .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢٧ .

(٢) سورة الحجر الآية ٢ .

وصيغة التثنية فى قوله ﴿ **ضعفين** ﴾ يراد بها الكثرة ، وروى عـن قتادة فى قوله ﴿ **ربنا آتهم ضعفين من العذاب** ﴾ أنه قــال : " عــذاب الدنيا وعذاب الآخرة " [1] ، وقيل : عذاب الكفر وعــذاب الإضــلال ، فإنهم ضلوا وأضلوا ٠

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٦٠ ٠

ايذاء بنو اسرائيل لموسى - عليه السلام

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّـــهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا(٦٩) ﴾ .

سبب نزول هذه الآية :

قيل نزلت فى أمر زينب بنت جحش – رضى الله عنها – وتـــزوج ﷺ بها وما سمع فى ذلك من كلام آذاه عليه الصلاة والسلام [١] .

وقيل : إنه ﷺ قسم قسما ، فقال رجل من الأنصار إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله [٢] .

فى هذه الآية الكريمة تأديب للمؤمنين وزجر لهم ونهى عن إيـــذاء النبى ﷺ . يقول تعالى ذكره لأصحاب النبى ﷺ يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تؤذوا رسول الله بقول يكرهه منكم ولا بفعل لا يحبه منكم ، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبى الله فرموه بعيب كذباً وبـــاطلاً فبرأه الله مما قالوا فيه من الكذب والزور بما أظهر من البرهان علـــى كذبهم وكان عند الله وجيهاً . يقول وكان موسى عند الله مشـــفعاً فيمـــا يسأل ذا وجه ومنزلة عنده بطاعته إياه [٣] .

---

(١) روح المعانى للألوسى ٢٢ / ٩٤ .

(٢) فتح القدير للشوكانى ٤ / ٣٠٨ .

(٣) تفسير الطبرى ٢٢ / ٣٦ .

قال القرطبى : " والوجيه عند العرب : العظيم القدر الرفيع المنزلة ·

ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئا أعطاه إيـــاه · وقيـل : معنـى " وجيها " أى كلمه تكليما " [1]

بم آذوا موسى عليه السلام ؟

ورد فى ذلك عدة أقوال :

الأول : قيل : هو عيب فى بدنه :

روى **عن أبى هريرة** ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : إن موســى ـ عليه السلام ـ كان رجلاً حياً ستيراً لا يُرى من جلده شئ استحياء منـه فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل وقالوا ما يستتر هذا الستر إلا من عيـب بجلده إما برص وإما أدرة [2] وإما آفة وإن الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا وإن موسى ـ عليه السلام ـ خلا يوما وحده فوضع ثيابه علـى حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عـدا بثوبه ، فأخذ موسى ـ عليه السلام ـ عصاه فطلب الحجر فجعـل يقول : ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى اسـرائيل ، فرأوه عرياناً أحسن مما خلق الله تعالى وبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه [3] .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٦٢ ·

(٢) أُدْرَة : انتفاخ فى الخصية .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير باب ما جاء فى تفسير سورة الأحـزاب ١٠ / ١٥٤ من الفتح . والترمذى فى سننه . كتاب التفسير ٥ / ٣٥٩ ـ ٣٦٠ قال أبو عيسى :هذا حدبث حسن صحيح .

والثانى : قيل : اتهموه بأنه قتل أخاه هارون ، ويشهد لهذا القول ما يلى :

أخرج ابن جرير الطبرى[1] بسنده عن ابن عباس عن علـــى بـــن أبـــى طالب رضي الله عنه قال : صعد موسى وهارون الجبل فمات هـــارون فقـــالت بنـــو اسرائيل أنت قتلته وكان أشد حباً لنا منك وألين لنا منك فآذوه بذلك فـــأمر الله الملائكة فحملته حتى مروا به على بنى اسرائيل وتكلمت الملائكة بموته حتى عرف بنو اسرائيل أنه قد مات فبرأه الله من ذلك فانطلقوا به فدفنوه .

وقيل : إن الله أحيا هارون فأخبرهم أنه لم يقتله .

والثالث : ما حكاه القرآن الكريم عنه من قولهم ﴿ **فاذهب أنـــت وربـــك فقاتلا إنا ههنا قاعدون** ﴾ [2] ، وقولهم ﴿ **لن نصبر على طعام واحـد** ﴾ [3] وقولهم ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ [4] إلى غير ذلك .

ولكن : لا مانع أن يكون للشئ أكثر من سبب ، ويمكن حمـــل مـــا قالوا على جميع ما ذكر .

وقوله : ﴿ **فبرأه الله مما قالوا** ﴾ أى : من قولهم أو من الذى قالوه .

و ﴿ **ما** ﴾ يجوز أن تكون مصدرية ، ويجوز أن تكون موصولة .

وذيلت الآية بقوله ﴿ **وكان عند الله وجيها** ﴾ لتفيـــد ســـبب عنايـــة الله بتبرئته عليه السلام ، وهذا تسفيه للذين آذوه ، بأنهم آذوه مما هو مبرأ منه .

هذا وقد دلت الآية على وجوب توقير النبى ﷺ وتجنب ما يؤذيه .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢ / ٣٧ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٢٤ .

(٣) سورة البقرة من الآية ٦١ .

(٤) سورة البقرة من الآية ٥٥ .

أسباب الفوز فى الدنيا والفلاح فى الآخرة

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا(٧٠)يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(٧١) ﴾ .

علاقة الآيتين بما قبلهما :

بعد أن نهى سبحانه عن إيذاء رسول الله ﷺ بقول او فعل ، أرشدهم إلى ما ينبغى أن يصدر منهم من الأقوال والأفعال التى تكون سبباً فى الفوز والنجاة فى الدار الآخرة ، والقرب من الله سبحانه .

قال الزمخشرى [1] : " وهذه الآية مقررة للتى قبلها فقد بنيت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله ﷺ ، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى فى حفظ اللسان ليترادف عليهم النهى والأمرمع اتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام ــ لأن وصفه بالوجاهة عند الله تعالى متضمن أنه تعالى انتقم له ممن آذاه ــ واتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه " .

وافتتحت الآية بالنداء بصفة الإيمان ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ، للاهتمام بهم واستجلاب الإصغاء منهم ، وفيه تعريض بأن المؤمن لا يمكن أن يصدر منه إيذاء للنبى ﷺ قاصدا متعمدا بخلاف المنافق .

وقوله ﴿ **وقولوا قولا سديدا** ﴾ أى : قاصدا ومتوجها إلى هدف الحق [2] ، وهو كل ما فيه إصلاح ، ويشمل القول السديد قراءة القرآن على

---

(١)الكشاف ٣ / ٢٤٨ ــ ٢٤٩ .

(٢) روح المعانى للألوسى ٢٢ / ٩٥ .

الناس ، ورواية حديث رسول الله ﷺ ، قال عليه الصلاة والسلام : " نضر الله امرأ سمع مقالتى ، فوعاها فأداها كما سمعها " [١] وكذلك ذكر أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء وأقوال الصحابة وأئمة الفقه ، أيضا من القول السديد ذكر الله تعالى والثناء عليه والصلاة على المصطفى ﷺ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •

وبهذا تشع الفضائل بين الناس ، فيرغبون فى التخلق بها •

قوله : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما** ﴾ •

فى هذه الجملة أكد سبحانه فوز من يطع الله ورسوله بعدة مؤكدات وهى :

التقرير والتأكيد بـ " قد " ، ومجئ الجواب " فاز " فعلا ماضيا مشعرا بأن الأمر قد تم ، ثم التأكيد بالمصدر فى قوله " فوزا " ، ثم الوصف بالعظمة المشعرة بسمو الفوز •

والخلاصة ـ أنه سبحانه أمر المؤمنين بشيئين : الصدق فى الأقوال والخير فى الأفعال ، وبذلك يكونون قد اتقوا الله وخافوا عقابه ثم وعدهم على ذلك بأمرين :

الأول : إصلاح الأعمال إذ بتقواه يصلح العمل ، والعمل يرفع صاحبه إلى أعلى عليين ويجعله يتمتع بالنعيم المقيم فى الجنة خالداً فيها ابداً .

الثانى : مغفرة الذنوب وستر العيوب والنجاة من العذاب العظيم .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه • كتاب العلم • باب ما جاء فى الحث على تبليغ السماع ٣٣/٥ • قال أبو عيسى : حديث حسن • وأبو داود • كتاب العلم • باب فضل نشر العلم ٣٢٢/٣ •

أمانة التكاليف وحملها

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(٧٢)لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(٧٣) ﴾ .

علاقة الآية بما قبلها :

لما بين سبحانه ما لأهل الطاعة من الخير بعد بيان ما لأهل المعصية من العذاب بين عظم شأن التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها ، وأن حصولها عزيز شاق على النفوس .

قال الألوسى : " لما بين جل شأنه عظم شأن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الأليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام من غير جبر هناك ولا إبرام ، وعبر عنها بالأمانة وهى فى الأصل مصدر كالأمن والأمان تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وأتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشئ من حقوقها ، وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها من حيث الخصوصيات بالعرض عليهن لاظهار مزيد

الاعتناء بأمرها والرغبة فى قبولهن لها ، وعن عدم ــ استعدادهن لقبولها ومنافاتها لما هن عليه بالإباء والاشفاق منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة .

والمعنى؛أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وإدراك لأبين قبولها وخفن منها لكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المعروض بصورة المحقق لزيادة تحقيق المعنى المقصود توضيحه " [١]

قوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها** ﴾

إن لفظ الأمانة يطلق ويراد به كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر فى شئون الدين والدنيا ، ونظرا لتعدد الأمانات وتنوعها فإنه ليس لها تعريف محدد ، فقد تذكر ويراد بها أمانة معينة ، وقد تذكر ويراد بها عموم الأمانات ، ولكن سياق الآية هنا هو الذى يحدد معناها .

والذى يتبين من أقوال أكثر المفسرين أن الأمانة فى قوله تعالى ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ هى أمانة التكاليف والفرائض التى افترضها الله على عباده .

روى **القرطبى عن ابن عباس قال** : الأمانة : الفرائض ، عرضها الله سبحانه وتعالى على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم ،

---

(١) روح المعانى للألوسى ٩٦/٢٢ .

وإن ضيعوها عذبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصيـــة ، لكــن تعظيماً لدين الله عز وجل ألا يقوموا بها . ثم عرضها على آدم فقبلـــها بما فيها [١] .

وقد اختلف العلماء فى تعبيراتهم عن هذه التكاليف فمنهم من قـــال هى الفرائض ، ومنهم من قال هى الدين ، ومنهم من قال هى الطاعة .

فالذين قالوا : إنها الفرائض استدلوا بما رواه ابن كثير عن قتـــادة قال الأمانة الدين والفرائض والحدود [٢] .

والذين قالوا : إنها الدين استدلوا بما رواه ابن جرير الطبرى بسنده " عن ابن زيد قال إن الله عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين ويجعل لهن ثواباً وعقاباً ويستأمنهن على الدين فقلن لا . نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثواباً ولا عقاباً ، قال رسول الله ﷺ : " وعرضـــها الله على آدم فقال بين أذنى وعاتقى " . قال ابن زيد فقال الله لـــه أمـــا إذا تحملت هذا فسأعينك أجعل لبصرك حجاباً إذا خشيت أن تنظر إلى مـــالا يحل لك فأرخ عليه حجابه ، واجعل للسانك باباً وغلقاً فإذا خشـــيت فأغلق ، واجعل لفرجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك " [٣].

والذين قالوا : أنها الطاعة : استلوا بما رواه ابن جرير الطبرى [٤] بسنده عن ابن عباس ﷺ قوله ﴿ **إنا عرضنا الأمانة** ﴾ الطاعة عرضها

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٦٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٠١ .

(٣) تفسير الطبرى ٣٨/٢٢ ــ ٣٩ .

(٤) المرجع السابق ٢٢ / ٣٩ ــ ٤٠ .

عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم تطقها فقال يا آدم أني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذ بما فيها . فقال يارب وما فيها . قال : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فتحملها [1] فذلك قوله : ﴿ **وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ .

وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى متفقة المقصود . فالطاعة هي الإنقياد ، والدين معناه الطاعة تقول : دان له يدين دينا أي أطاعه ، والفرائض جمع فريضة وهي الشئ الواجب أي ما يجب أن يطاع .

الأمانة التي قبلها الإنسان :

تنقسم الأمانة إلى قسمين :

١ ـ أمانة بين العبد وربه ويمكن أن نطلق عليها أمانة التكاليف والفرائض .

٢ ـ أمانة بين العبد وسائر الناس ويمكن أن نطلق عليها أمانة السلوك .

والأمانة التي عرضها الله تعالى على الإنسان عرضها من قبل على عدد من مخلوقاته . عرضها على السموات والأرض والجبال . لكن هذه المخلوقات رفضت أن تحمل الأمانة . لأنها أحست أنها لن تستطيع ان تفي بها . فالنعم التي أعطاها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنا لها حق أداء . وهذه المخلوقات كلها أحست بعجزها عن أداء الشكر لله على نعمه . ولذلك رفضت وقبلها الإنسان ، وكان بقبوله هذا " ظلوما "

---

(١) المرجع السابق ٢٢ / ٣٨ ـ ٣٩ .

لنفسه ، لعدم وفائه بما تحمله و " جهولا " لأنه ظن انه سيكسب شيئا .
فقد صور له جهله أن الدنيا هى الأساس وأنه يستطيع أن يحصل على ملك لا يبلى ، وأن يخلد فى الأرض . ونسى أن وقت الحساب سيجازي وسيحاسب هل أدى الأمانة كما هى أم أهملها وقصر فى أدائها .

وهذه الأمانة التى حملهم إياها هى أمانة الإيمان به والخشوع له وطاعته فى أمره ونهيه . قال مجاهد : " فلما خلق الله تعالى آدم عرضها عليه ، قال : وما هى ؟ قال : إن أحسنت أجرتك وإن أسأت عذبتك . قال : فقد تحملتها يارب . قال مجاهد : فما كان بين أن تحملها إلى أن أُخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر " [1] .

فمن أدى هذه الأمانة وقام بهذه التكاليف من بنى البشر فهو المؤمن . أما من غرق فى الدنيا ولم يؤد هذه الأمانة وانسلخ وعاش لنفسه خادما لشهواته فهو الكافر والمنافق ، لهذا قال الله تعالى بعد ذلك : ﴿ **ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما** ﴾ . اللام فى قوله : ﴿ **ليعذب** ﴾ متعلقة بحملها أى حملها الإنسان ليعذب الله العاصى ويثيب المطيع ، قال الزمخشرى [2] : " وقيل : بعرضنا فاللام للتعليل على طريق المجاز لأن التعذيب نتيجة حمل الأمانة كما أن التأديب فى ضربته للتأديب نتيجة الضرب " .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ١٦٣ .

(٢) تفسير الزمخشرى ٣/٢٥٠ .

وعلى هذا فجملة ﴿ **إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ معترضة بين الجملة وغايتها للإيذان بعدم وفائه بما تحمله .

قال الشوكانى : " قال الحسن وقتادة : هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها ، وهؤلاء الذين يتوب الله عليهم هم الذين أدّوها . وقال ابن قتيبة : أى عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله ويظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه [1] لذلك علل قبوله لتوبتهم بقوله : ﴿ **وكان الله غفوراً رحيما** ﴾ أى كثير المغفرة والرحمة للمؤمنين من عباده إذا قصروا فى شئ مما يجب عليهم .

وبعد : فإن ختام السورة بقوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ...** ﴾ الآية ، ختام رائع لهذه السورة التى جمعت أوامر عالية ، وآدابا سامية وحكما ومواعظ رائعة كلها من تكاليف الإسلام ، وفى هذه الآيات بيان أن التكاليف ليست هينة ، وإنما هى عظائم الأمور التى نأت عنها السموات والأرض والجبال .

اللهم جنبنى الذلل ، واعصمنى عن الخطأ ، واجعل عملى هذا خالصا لوجهك الكريم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد فى الأولين والآخرين .

د . عفاف النجار

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٤ / ٣٠٩ .

فهرس المراجع

١ــ القرآن الكريم .

٢ــ أسرار ترتيب القرآن : للسيوطى ٠ دراسة وتحقيق عبد القــادر أحمــد عطا ٠ الطبعة الثانية ١٣٩٨هــ ــ ١٩٧٨ م

٣ــ اعراب القرآن الكريم وبيانه :لمحى الدين الدرويش. دار الارشاد حمص .

٤ــ الأم : للإمام أبى عبد الله محمد بن أدريــس الشــافعى ــ الــدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٢١هــ ٠

٥ــ البحر المحيط : لأبى حيان . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٩هــ

٦ــ الجامع لأحكام القرآن : للقرطبى . دار الكتب العلمية ــ بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٩ هــ .

٧ ــ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور : للسيوطى ٠ طبعة دار الفكر ٠

٨ــ السيرة النبوية : لابن هشام . دار احياء التراث العربى ــ بيروت .

٩ــ الفتوحات الإلهية : تأليف سليمان بن عمر العجيل الشهير بالجمل .

١٠ ــ المغازى . للواقدى طبعة ١٩٦٦ م .

١١ ــ المغنى : لابن قدامة المقدسى ٠ مطبعة المنار ٠ الطبعة الثالثة ٠

١٢ــ النهاية فى غريب الحديث والأثر : لابن الأثير ٠ المكتبة العلميــة ١٣٨٣هــ ــ ١٩٦٣ م

١٣ ـ **بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع** : لعلاء الدين أبى بكر بن مسعود الكاسانى ٠ تحقيق محمد أمين الخانجى ٠ طبعة دار الكتاب ـ بيروت ٠

١٤ـ **تفسير أبى السعود** : **لأبى السعود محمد بن محمد العمادى** . دار احياء التراث العربى بيروت . الطبعة الثانية .

ـ **تفسير الفخر الرازى** : (**التفسير الكبير**) **للإمام الرازى** . دار احياء التراث العربى بيروت . الطبعة الثالثة .

ـ **تفسير القرآن العظيم** : لابن كثير . مؤسسة الكتب الثقافية . الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م ٠

ـ **تفسير الكشاف** : للزمخشرى . المعرفة ـ **بيروت** .

ـ **تفسير المراغى** : للأستاذ الكبير المرحوم أحمد مصطفى المراغى ٠

ـ **جامع البيان فى تفسير القرآن** : لأبى جعفر بن جرير الطبرى . دار الحديث بالقاهرة ١٤٠٧ هـ .

٢٠ ـ **حاشية الدسوقى على الشرح الكبير** : للشيخ شمس الدين محمد عرفة الدسوقى دار احياء الكتب العربية ـ عيس البابى الحلبى ٠

٢١ـ **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى** ٠ طبعة دار صادر بيروت ٠

٢٢ـ **حياة محمد** . محمد حسين هيكل . الطبعة الثالثة عشر . مكتبة النهضة المصرية .

٢٣ـ **روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى** : للألوسى . دار احياء التراث العربى بيروت . الطبعة الرابعة ١٤٠٩ هـ .

٢٤ ـ **زاد المسير فى علم التفسير** : لابن الجوزى ، المكتب الإسلامى الطبعة الثالثة ١٤٠٤ ه ـ ١٩٩٤ م ،

٢٥ـ **سنن أبى داود** : دار الفكر العربى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

٢٦ـ **سنن ابن ماجه** . القاهرة دار احياء الكتب العربية ١٩٥٢ م.

٢٧ـ **سنن الترمذى** : القاهرة . المكتبة الإسلامية ١٩٦٢ م .

٢٨ـ **صحيح البخارى** : دار التراث العربى ١٩٥٨ م .

٢٩ـ **صحيح مسلم** : دار احياء التراث العربى ١٩٥٦ م .

٣٠ـ **فتح البارى** : لابن حجر . مطبعة مصطفى البابى الحلبى . الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م.

٣١ـ **فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير** : للإمام الشوكانى دار احياء التراث العربى ـ بيروت .

٣٢ ـ **فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب** ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة والعشرون ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥ م ،

٣٣ـ **لباب النقول فى أسباب النزول** : للسيوطى . دار احياء العلوم . بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ .

٣٤ـ **لسان العرب** : لابن منظور . دار صادر بيروت .

٣٥ـ **مختصر تفسير ابن كثير** . اختصار وتحقيق محمد على الصابونى دار القرآن الكريم بيروت . الطبعة السابعة ١٤٠٢ هـ .

٣٦ـ **مسند الإمام أحمد ابن حنبل** . القاهرة ١٣١٣ هـ .

٣٧ـ **مشكاة المصابيح** : للترمذى .

٣٨ ـ **معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم** : للراغب الأصفهانى تحقيـق
نديم مرعشلى طبعة دار الفكر ، بيروت ـ لبنان .

٣٩ ـ **مغنى المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج** : للخطيب الشـــربينى
المكتبة التجارية ١٩٥٥ م .

٤٠ـ **نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور** للبقاعى .الطبعة الأولـــى .
دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية
١٩٩٨ / ٨٠٠٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N.
977-19-6255-8